



نادية سعد الدين

الفلسفة والمشكلات المعاصرة

(التطرف، الاغتراب الثقافي نموذجًا)

الفلسفة والمشكلات المعاصرة

(التطرف، الاغتراب الثقافي نموذجاً)

- الفلسفة والمشكلات المعاصرة (التطرف، الاغتراب الثقافي نموذجاً) .
- سلسلة الفلسفة الشباب.
- المؤلف: نادية عباس سعد الدين.
- **الطبعة:** الأولى، ٢٠٢١م
- **الناشر: وزارة الثقافة**

شارع صبحي القطب المتفرّع من شارع وصفي التل، بناية رقم ٢٠ – ص.ب: ٦١٤٠، عمان – الأردن

تلفون: ٥٦٩٦٢١٨ / ٥٦٩٩٠٥٤ – فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨

بريد إلكتروني: info@culture.gov.jo

- **تصميم الغلاف:** عُبادة الفحماوي
- **متابعة وتنسيق:** فادية نوفل.
- **التنسيق والإخراج الفني:** محمد عدنان

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢١/٩/٥٤٩١)

٣٠٣.٦٢٠١

سعد الدين، نادية عباس

الفلسفة والمشكلات المعاصرة (التطرف، الاغتراب الثقافي نموذجًا)

نادية عباس سعد الدين.– عمان: وزارة الثقافة، ٢٠٢١.

(١٩٢) ص

ر.إ.: ٢٠٢١/٩/٥٤٩١

الواصفات: /التطرف/ /الاغتراب الثقافي/ /الشباب/ /الفوضى الإجتماعية/ /المشاكل الإجتماعية/ /الفكر الفلسفي/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر بالضرورة عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك: (978-9957-94-707-1)

الفلسفة والمشكلات المعاصرة

(التطرف، الاغتراب الثقافي نموذجاً)

إعداد: د .نادية سعد الدين

وزارة الثقافة الأردنية

٢٠٢١م

المقدمة

يؤصل تاريخ الفكر الفلسفيّ لتشبيك علائقيّ وثيق مع التحديات الكونيّة الوازنة التي شهدها، وما يزال العالم نظير استلاله لأدوات نقدّية وتفسيريّة وتحليلية كليّة تتجاوز النطاق المعرفيّ، دون مبارحته، صوب الحيّز الحركيّ النشط، ليُكونان معاً الإطار المفاهيميّ والمنهجيّ الشامل المُعين على صوغ الحلول الناجعة والطرائق المضادة للمواجهة.

وإذا كانت الفلسفة، كتعبير عقليّ وفكريّ منطقيّ، معنيّة بدراسة طبيعة الواقع والوجود، وزاخرة بالقيم الإنسانية المنادية للحوار والتسامح واحترام التنوع الثقافيّ وفق قاعدة العدالة والمساواة والعيش المشترك؛ فإن إعادة الاهتمام بإحيائها، كما لوحظ في الآونة الأخيرة، سبيلاً لمُقاربة الإشكاليات الحادّة التي تتصدّر واجهة المشهد الإقليمي العربيّ، منذ سنوات ليست قليلة، يشي بمكانة مبادئها وغاياتها السامية وقدرتها على مقارعة تحديات العصر.

ولأن الخطاب الفلسفيّ، الذي تلبّس بالنخبويّة على يدّ مدرسة الفيلسوف اليوناني "أفلاطون" (٤٢٧ ق.م - ٣٤٧ ق.م) بعدما جهد معلمه الفيلسوف والحكيم اليوناني "سقراط" (٤٧٠ ق.م – ٣٩٩ ق.م) لتنزيله إلى العامّة قبيل تراجعه أمام تنامي حركات التطرف الديني والثقافيّ، يسعى إلى الإصلاح المجتمعيّ بإنشاء الظروف المواتية لتحقيق التغيير وإحلال السلام والتنمية المستدامة، عبر استحثاث إعمال الفكر والنقاش العقلانيّ، فإن توسعة نطاقه يُصيب فئة الشباب، أيضاً، بتحرير قدراتهم الإبداعية، من خلال تقنيات التفكير والبراهين التي تقدّمها الفلسفة، بما يساعدهم على التساؤل الدائم وتحدّي الأفكار المغلوطة ومعرفة السلوكيات الصائبة والخاطئة، وإدراك أهمية التعدد والاختلاف والتسامح، وفهم القضايا الإشكالية بكثير من اليقظة، سبيلاً لتعويد الذهنية الشبابية على مواجهة التفكير المنغلق ومصارعته.

وبذلك؛ تشكل الفلسفة صمام أمان مضاد لتغلغل الحركات الدينية المتطرّفة من بين ثنايا الفكر المنغلق ومزاعم امتلاك "الحقيقة المطلقة" ومنابر التدفق المعلوماتي

المغلوط لاستقطاب الصفوف الشبابية، تحديداً، إلى عالمها الإرهابيّ، مثلما تُعدّ حلًّا استباقيًا، إلى جانب المعالجة الأمنية، لتفكيك التصورات الأصولية العُنفيّة والبؤر التكفيرية، من خلال حضورها النقديّ التحليلي وأسئلتها المزمنة لادعاءات ومآلات الأفكار التي يحملها المتطرفون، وتقديم أطروحة معاكسة تقوم على شرعية احترام الاختلاف والتباين الفكري والعقائدي، ونبذ العنف والتطرف، وتحرير العقل الإنساني من القيود المانعة لتحقيق هذه الغايات، بما يجعلها في مواجهة ضاريّة مع الفكر المتطرف، الذي يَجُبُّ في داخله صنوف؛ العنف، عندما يتحول من فكر إلى سلوك ظاهري وعمل سياسي لتحقيق أهدافه، والتعصّب، عند استبدال الأمة بالدين أو القبيلة أو الجماعة وعاءً حاضنًا للهوية والانتماء، وصولاً للإرهاب، بوصفه الاستخدام المنهجيّ للعنف، لخلق مناخات الذعر والخوف والقلق، بما يعني، في المحصلة، تهديد السلم والأمن المجتمعيّ، والسير بالمنطقة نحو مزيد من عدم الاستقرار.

وإذا كانـت حركـات التطـرف الـديني والثقـافي قـد تجـد ضالتها، بإحدى مناهلها، في الأفراد المنفصـمّين عـن واقعهـم الاجتمـاعي ومجـالهم العـام والمفتقـدين للهـدف والرؤيـة، ضمن عزلة ثقافية تمسّ أمن الأمـة ومكوناتهـا، فـإن العولمـة، بمـا أنتجتـه مـن "فـورة" معلوماتيـة ومعرفيـة وتكنولوجيـة، شكّلت آلية مساعدة في الاغتراب الثقافي، وهو المفهوم الـذي بـات حجـر زاويـة في بنـاء الرؤيـة الفلسفية للعـالم والإنسـان، ومـن أهـم المفـاهيم الفكريـة البـارزة في الفلسـفة الحديثـة والمعاصرة، للبحث في تجلياته وأضراره الفادحة التي تطال، أيضـًا، أصول المواطنة الفاعلـة، عنـد المسـاس بعلاقـة الفـرد بوطنه وبحسّه وانتمائه الوطني، وبمسؤولياته تجـاه مجتمعـه، وبضـعف مشـاركته في الحيـاة العامـة، بينمـا يُسـهم الـوعي الفلسـفي في إدراك ثيمـة التحـوّل في كيـان الفـرد إلـى مـواطن فاعـل، وهـو الأمـر الـذي تعاطّـت معـه الفلسـفة، بفرعهـا الأخلاقي، وأبرزت أهميته المجتمعيّة.

الأهداف الرئيسية من الكتاب

يهدف الكتاب إلى محاولة تعزيز وعي الشباب، الأردني خاصة، والعربيّ عامة، لمواجهة المشكلات المعاصرة، مثل التطرف والاغتراب الثقافي، (موضع الدراسة)، عبر إبراز أهمية استلال أدوات النقد والتحليل والتفسير التي توفّرها الفلسفة، وتجسيدها واقعًا حياتيًا، لتطوير قدراتهم المعرفية وتهيئتهم لتكوين اتجاهاتهم بشكل مستقل؛ بما يؤهلهم للمشاركة والمواطنة الفاعلة في الحياة العامة.

ومما سبق؛ فإن الكتاب يهدف إلى محاولة البحث في دور الفلسفة في معالجة المشكلات المعاصرة التي تعاني منها المنطقة العربية، عبر الاستعانة المنهجيّة بفرعها الأخلاقي. وينبثق عن ذلك محاور أساسية تبحث في: المنهجيّة التي قارَّب بها الفكر الفلسفيّ المشكلات المعاصرة، وأدواته الفكرية والنّقدية لمواجهتها وايجاد الحلول المضادة لها، وطرائقه الكفيلة بتحرير الواقع من الخطابات المحرّضة على العنف والتطرف والإرهاب، والقيّم الإنسانية التي تحفل بها

الفلسفة وتدافع عنها سبيلاً لمواجهة مشكلة الاغتراب الثقافي، والتي من شأنها، أيضاً، أن تعزّز قيم المواطنة التي قد تصبح ضحيّة تداعيات تلك الإشكاليات مجتمعة، بما يتضمن البحث في مرافد الفلسفة الفكرية والقيميّة التي تسهم في تعزيز وعي الشباب حيال تحديات العصر وسبل مواجهتها.

وفي ضوء ما سبق؛ فإن الكتاب يحاول البحث في دور الفلسفة في معالجة المشكلات المعاصرة، وذلك من خلال توضيح الرؤية الفلسفية تجاه تلك التحديات وسبل معالجتها، وسيتم، عند الضرورة، الاستعانة بآراء بعض الفلاسفة ممن كانت لهم آراء واضحة بخصوصها، حيث يتحدد مجال البحث هنا ضمن أبرز فلاسفة الفلسفة الحديثة، وهي فئة من الفلسفة الغربية ظهرت في القرن السابع عشر وامتدت حتى بداية القرن العشرين تقريباً، والفلسفة المعاصرة، وهي الحقبة التاريخية الحالية للفلسفة الغربية التي بدأت مع نهاية القرن التاسع عشر، أما إيراد رأي بعض الفلاسفة من حقب زمنية سابقة فهو لأغراض تخدم البحث فقط.

وبهذا؛ يخصّ الكتاب في دراسته قضيتيّ التطرف والاغتراب الثقافي بوصفهما من المشكلات المعاصرة التي

تعاطت معهما الفلسفة بعمق وسعت إلى مواجهتهما، لما لهما من تبعات غير محمودة تمتد من الفرد، بما يمس قيم المواطنة الفاعلة، حتى الأمن والاستقرار المجتمعيّ.

وتطال معالجة الكتاب هنا للتطرف، الذي يجُبّ بداخله مفاهيم العنف والتعصّب والإرهاب، كل فكر أو عمل يقوم به فرد أو جماعة أو حركة تنظيمية، وما يصاحبه من أفعال تعتمد العنف والقوة والترهيب لتنفيذ أهدافها، بقصد تهديد السلم الأهلي وزعزعة الأمن والاستقرار المجتمعيّ.

ولأن الكتاب مُوجّه أساساً إلى الشباب، العربيّ عامة والأردنيّ خاصة، فإنه سيعتمد أسلوب الحوار في مخاطبتهم، من أجل محاولة تقديم المعلومة المُبسّطة والهادفة إليهم.

الإطار النظري

أختي الشابة/ أخي الشاب

تعدّ الفلسفة نشاط الفكر، وأسلوباً للتفكير يهدف إلى توجيه العمل أو وصف طريقة للحياة، وتقوم على إعمال العقل وإعلاء قيّم التأمل والتفكير والحوار والتسامح والسلام والتعدد الثقافي، مثلما يستند الفكر الفلسفيّ، في أسسه القاعديّة، إلى النقد وشرعيّة الاختلاف والتباين في الأفكار والمعتقدات، وتقبّل الآخر المختلف، فكراً واعتقاداً، واحترام حقه في الرأي والتفكير، وذلك عبر استلال أدوات منهجيّة عقلانيّة، وتحرير العقل الإنساني من القيود والكوابح الفكرية التي تقوّض قيم التعدد والتسامح والتنوع، وتُعزّز منطق التعصّب والكراهية والعدائية وإنكار الذات و"الآخر"، بما يجعل للفلسفة قيمة دائمة في تطور الفكر البشريّ، بعيداً عن صنوف العنف والقوة والتطرف، موضع النبذ الدائم من جانبها.

وقد تصدت الفلسفة للمظاهر المجتمعية السلبية التي تخترق الذهنيات وتؤثّر في مختلف المجالات المجتمعيّة، مثل التطرف والاغتراب الثقافي، فوضعتها في سدة برنامج عملها الاستراتيجي، وترجمتها ضمن صيغ الوسائل والأدوات والغايات والمقاصد المضادة لها، عبر فرعها الأخلاقي، أو فلسفة الأخلاق، حيث تعدّ الفلسفة الأخلاقية أحد فروع الفلسفة المعنيّة، عمومًا، بالطريقة التي يمكن من خلالها أن يعيش الفرد حياة خيّرة، وبحقوق الفرد ومسؤولياته، وتحديد الخير والشر، ومناقشة القرارات الأخلاقية، من حيث الصواب والخطأ والسلوك الجيد والسيء.

وتستند الفلسفة هنا إلى منهجية فكرية أخلاقية تقوم على الإدانة الأخلاقية للآفات الاجتماعية، ومساءلتها في مستوى جذورها وظروف تكوينها والتشكيك في جدوى الأفكار الزائفة التي تزعمها، ومن ثم تأسيس المعرفة المقدمة على أقانيم التعددية والسلم والتسامح، بعد ذلك؛ تقوم الفلسفة بتفكيك أفكار الخطاب الذي تستند إليه تلك المظاهر المرضيّة، بما تحمله من شرور وآفات وعدائية، ومحاولة

اقتلاعها من أسسها، ومن ثم إعادة بناء القيم والمبادئ التوجيهية التي تساعد على التفاعل وإرادة العيش المشترك وتحقيق السلم الأهلي وتدبير الخلاف بالحوار والتفاهم والاتفاق العام، وطرح الحلول والابتعاد عن خيار النزاعات والصراعات الدامية وإيثار السلام والاستقرار.

الفصل الأول

الفـلسفة والتـطرف

يحفل الخطاب الفلسفيّ بمنظومة قيميّة إنسانية مضادة لظاهرة التطرف، العالمية والعابرة للحدود، نظير تبعاته القاتمة الممتدة من حيز معتنقيه صوب فضاءات البيئات المستهدفة، عند انتقاله من خانة الفكر، بدون مبارحة آثاره المُدمرة، إلى شق السلوك الظاهري سبيلاً لتحقيق هدفه، وإشاعة مناخات الذعر والخوف والترهيب بين صفوف مواطنه، بما يهدّد أواصر السلم والأمن والاستقرار المجتمعيّ.

وقد تصدّت الفلسفة بشراسة للتطرف، بوصفهما ضدّان لا يلتقيان، فانبرت، تنظيرياً ومنهجياً وعملياً، لإعلاء القيم الإنسانية وإعمال الفكر والعقل والحوار وجبّ الخطابات المحرِّضة على العنف والكراهية والإرهاب، ونبذ "الولاءات الأولية" التي استبدلت بالدين أو الجماعة أو العرق، الأمة وعاء حاضناً للهوية والانتماء، والتي تمس أسّ المواطنة المجتمعية الفاعلة.

أختي الشابة/ أخي الشاب

قبل محاولة توضيح المنظور الفلسفيّ لمقاربة التطرف وسبل مواجهته؛ لا بد من التوقف أولاً عند ماهيّة تعريفها لطبيعة معناه، وسمات مستليه، ومن ثم تحديد المفاهيم المتداخلة معه.

أولاً: تعريف "التطرف" (Extremism) من المنظور الفلسفيّ

يبزُغ التطرف، أساسًا، من بين ثنايا مثالب الغلوّ والمبالغة والتعنت، في عقيدة أو فكر أو مذهب مما يختص به دين أو جماعة أو حزب، صوب إتيان اتجاه أحاديّ ينتحي أقصى درجات التشدد بعيداً عن حدّ الاعتدال، مع إغفال ما يمكن للاتجاهات الأخرى أن تتضمنه من معنى ومعقولية وصدق، وفق الفيلسوف الفرنسي المعاصر "أدري كونت سبونفيل" (١٩٥٢م)، (أنوار، ٢٠٢٠: ٣٨)، حيث تأخذ الذات الفاعلة، سواء أكانت فرداً أم جماعة أم حركة تنظيمية، بناصية الأطراف والهوامش تعبيراً عن موقفها الكارِه للمركز، الذي قد يكون دولة أو أمة أو جماعة، والمنطوي على صنوف الحقد والعداوة والبغض والنقمة، الناشئة إما بتوجه خاص أو بانجرار وراء حركة ما أو لتحقيق هدف معين أو نتيجة الظروف المجتمعيّة

المحيطة، بما يجعلها، في المحصلة، خارجة عن سُنّة القوم ودينهم، عقديًا أو سياسيًا، بل وأيديولوجيًا أيضًا.

وبذلك؛ فإن الفكر المتطرف يأخذ بطرف الشيء، فيبقى في حدود أطرافه وقشوره السطحية، بدون أن يتأتى له بلوغ جوهره، والنفاذ إلى عمقه، بما يُحيل إلى الجهل به، مع تغليفه بمعرفة مزعومة تستحيل تعصّبًا مقصوداً، وتطرفًا مذهبيًّا منحازاً ومتحيزاً. وإذا استبدت الأفكار بصاحبها، فإنها تصير معتقدات دوغمائية (Dogmatism)؛ أيّ حالة من الجمود الفكري التي يتعصب فيها الشخص لأفكاره ومبادئه وقناعاته الخاصة لدرجة رفضه الاطلاع على الأفكار المخالفة حتى وإن ظهرت له الدلائل التي تثبت له خطأ أفكاره، فإنه سيحاربها بكل ما أوتي من قوة ويصارع من أجل إثبات صحة أفكاره وآرائه، وتلك هي اللبنة الأولى لبناء صرح التطرف في شتى أبعاده وأشكاله، فالتطرف، طبقًا للفيلسوف "سبونفيل"، "إغواء لمن هم أكثر اقتناعًا أو لأولئك الذين هم أشد حقداً، وفي كلتا الحالتين، فإنه يشكل خطراً وقوة مزدوجين" (أنوار، ٢٠٢٠: ٣٨).

ويتّسم المتطرف بانغلاق التفكير والعقل، وضيق الأفق، ومحدودية الرؤية، ويستميت للدفاع عما يدّعيه "حقيقته المطلقة" بأبشع الطرائق العُنفيّة ضد المدنيين، بهدف خلق حالة من الشعور بالخوف والذعر بينهم، بحيث تتحول الأفكار الأكثر تفتحاً، وفق تصوّر الفكر المتطرف، إلى منظومة فكرية منغلقة لا تقبل النقاش والجدل حولها (Rokeach, 1960: 51)، وصولاً إلى محاربة ثقافة شرعية التباين والاختلاف في الأفكار والمعتقدات التي يدافع عنها الفكر الفلسفي باستماتة عبر تاريخه.

يمكنك أن تلاحظ مما سبق، أن الذات المتطرفة قد تكون فرداً أو جماعة أو حركة سياسية تنظيمية، تحمل نزعة الحقد والكره والضغينة في نفسها الفردية فإما أن تكتفي به عند حدودها الفكرية المُتطرفة بما ينتج عنه اغتراباً عن محيطها المجتمعي ونقمة عليه واستلاباً لقيم مواطنتها الفاعلة، وإما أن تحيله إلى سلوك ظاهري عنيف لتدمير الآخر والقضاء عليه واستبعاده وإقصائه، بدلاً من الحوار والنقاش معه، وهو الأمر الذي يتجسّد في صور "العنف الأسريّ" و"العنف الجامعيّ"،

أو على نطاق أوسع صوب "العنف المجتمعيّ"، وهنا إما أن يقوم المُتطرِف بالفعل العنيف، من تخريب وترهيب وقتل المدنيين وتدمير منشآت الدولة، منفرداً فيطلق عليه "ذئباً منفرداً" أي إرهابياً، بحيث تحركه دوافعه المتطرفة الناقمة على المجتمع وعلى الكيان السياسي أو البيئة التي يعيش فيها، وإما أن ينتسب إلى جماعة متطرفة، قد يصبّ عملها، بدورها، في خانة نشر أفكارها المتطرفة ضمن بيئتها الاجتماعية الحاضنة، أو تقوم بتصديرها للخارج كعمل إرهابي.

ومن ذلك؛ نخلص إلى أن المتطرفين يُصنفون إلى ثلاث فئات وهي: المُتطرف المُنفِذ (الأداة)، المُتطرف المتعاطف (المُتلقٍ للأفكار)، مثل من يتأثر بالمخططين وينقل رسالتهم للغير من أجل التأثير بهم لتنفيذ المخططات الإجرامية، والمتطرف المُخطِط (المُنظر)، وهو من أخطر الفئات لأنه المسؤول عن التخطيط للأعمال الإجرامية وتجنيد بعض الشباب لتنفيذها. وهذا يعني، أن الفكر المتطرف قد يتحول إلى سلوك ظاهري أو عمل سياسي إرهابي، فيلجأ عادة إلى استخدام العنف كوسيلة لتحقيق المبادئ والأهداف التي

يؤمن بها كفكر متطرف، وقد يقوم بذلك بنفسه أو من خلال الانتظام ضمن جماعة أو حركة تنظيمية، تبث في ذهنه أفكارها الإرهابية المتطرفة، إما عبر الاتصال المباشر أو من خلال الانترنت والشبكات الاجتماعية، من أجل تحقيق أهدافها الرامية إلى خلق مجتمع متجانس مبني على مبادئ أيديولوجية متزمتة وصارمة، تنطوي على تقييد المواطنين وقمع جميع أشكال المعارضة والأقليات الخاضعة لسيطرته.

وقد تعتقد أن ثمة حدوداً فاصلة بين اعتناق الفكر المتطرف، أيـًا كانت درجة تطرفه، وبين ممارسة النشاط الإرهابي، غير أن تلك الحدود قد تبدو للوهلة العامة متينة ولكنها في الحقيقة هشّة سرعان ما تتهاوى ضفتيّها البينيّة لمُعتنقيها، ولكن بدون الخلط بينهما.

وقد تباينت الآراء حيال تلك المسألة الخلافيّة؛ إذ يرى أنصار "الحدود الفاصلة" أن التطرف الفكري يؤدي إلى تشوهات فكرية وشعورية تجاه "الآخر"، ولكنه ليس بالضرورة يقود إلى الفعل الإرهابي، فبالرغم من وقوع التطرف على حافة الطّيف الديمقراطي، إلا أن المتطرفين لا ينخرطون جميعـًا في

أعمال العنف والإرهاب لفرض أجندتهم، حيث يركز بعضهم على الترويج "لقضيتهم" أكثر من تتبع المعارضين لها لتدميرهم، مما يوجد الاختلاف، بحسبهم، بين المتطرفين العنيفين ونظرائهم غير العنيفين. بيد أن ما تغفله تلك الآراء أن ثمة لحظة ضيقة فارقة للتحول من تطرف الفكر إلى تطرف الفعل، قد لا يتم رصدها بسهولة حتى من قبل الأجهزة الأمنية الرسمية، بحيث تذيب الفارق بين الجانبين بسهولة، عندما يتعاطف المتطرفون غير العنيفين مع أهداف المتطرفين العنيفين ويقدمون لهم الدعم والمساعدة، تمهيداً ربما للانخراط لاحقاً في صفوفهم، فضلاً عن أن حاملي الفكر المتطرف قد لا ينفذون أعمال عنف لكنهم يديرون الإرهاب ويؤطرون له ويحرّضون عليه، وهذه الحالة من تطرف الفكر تعدّ أخطر كثيراً من تطرف الفعل، بحيث يمكن وصمها تطرفاً فعلياً.

ثانياً: مفاهيم متداخلة مع التطرف
"العنف، التعصّب، الإرهاب"

نأمل منك، أختي الشابة/ أخي الشاب، إدراك ما ينطوي عليه مفهوم التطرف من نزعات العنف والتعصّب والإرهاب. فبالنسبة للفلسفة؛ فإن هناك علاقة تتابعيّة وشيجة تربط بينهم وتقود إلى تبعات مجتمعيّة جسيمة، بما يستدعي محاربتهم، فالتطرف مجبول بالعنف، عند تحوله عملاً عنيفاً، ولدى التزامه ناصية التعصّب الفكريّ الذي يقود إلى الإرهاب، الذي لا يمكن إلا أن يكون عنيفاً.

"العنف" (Violence)

العنف مضادّ للرفق، ومرافق للشدة والقسوة، فعل مُوجه ضدّ "الآخر"، واستعمالٌ للقوة بطريقة غير شرعية وغير قانونية ضد "الآخر" الذي لم يعد طرفاً في التواصل، من أجل فرض إرادته عليه، بعدما تحول في نظر مُستعمل القوة

إلى مجرد شيء. كما يُعرّف بأنه عملية قتل، حتى وإن كانت هذه العملية لا تذهب إلى حدودها القصوى، مثلما لا تنخفض حدة العنف عن طريق الإزالة المادية للشخص أو للمجموعة المقصودة، إذ يعتبر هدف العنف الرئيس التدمير والرغبة في القضاء على الآخر واستبعاده وإقصائه، واختزاله إلى كينونة صامتة يصبح أقوى من الرغبة في الحوار والنقاش معه، فهو كل ما يؤدي إلى نفي "الآخر" (مبروك، ٢٠١٨: ٦- ٧). ويمكن أن يأخذ العنف أشكالاً متعددة وبأشكال متفاوتة، مثل الإهانة والضرب والاعتداء والسلوك الإرهابي، كما قد يتخذ طابع العنف الأسري أو العنف الجامعي أو العنف المجتمعيّ. ويعتبر العنف ظاهرة معقدة تتدخل عناصر، نفسية واجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية، مختلفة في نشوئها وتكونها، ولكنه مشكل أخلاقي، وبصورة خاصة مشكل يتعلق بالمعنى الذي يعطيه الإنسان لذاته وللآخر وللعالم، إذ أن المصدر الأساس للعنف يكمن في "الأنا" التي يتّسم بها الإنسان، بوصفه الأهم في العالم، والشعور بالذات الذي يحرّض ضد كل الأنفس الأخرى.

ويمثل العنف، كما التطرف، تحدياً للفلسفة، فالخطاب الفلسفي لم يستطع تجاهل أفعال العنف وآثارها المدمرة في الحياة والمجتمع، فإذا كانت الفلسفة تُعرف كحوار وتفكير، فإن العنف هو بالضرورة نقيضها. ويحفل الفكر الفلسفي بنظريات مناهضة للعنف وداعية لصدّه مقابل تشريع حق الاختلاف، فالفكر الفلسفي يرفض، في مبادئه ومقاصده، العنف ويؤيد التسامح، بل يدافع عن تكريسه في الواقع الإنساني ابتداءً من العلاقات الفكرية، وانتهاءً بالعلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وتقف الفلسفة ضدّ العنف لكونها تتبنى الحوار على أساس المنطق والبرهان والحجة والعقل والنزعة الإنسيّة، خلافاً للفكر العنيف، ولأن العنف يمسّ الإنسان، في ماهيته وقيمته وكرامته وإنسانيته، ويرتكز على جُل الأفكار السلبية التي تحاربها الفلسفة، مثل التسلط والظلم والقهر والقسوة والقوة، فالسّمة الخاصة للفلسفة تحتم على الفيلسوف الدفاع عن الفضيلة والتسامح والتوازن والانفتاح والنقد البناء والعقلاني والمنطقي، وتجنب العنف والعصبية، بما يجعل

هناك فجوة غير قابلة للتجسير بين الفلسفة، كوعي وسلوك ومبدأ وضمير ومعطى بنيوي فكري، وبين العنف بوصفه فعلاً لا عقلانيـاً وغير أخلاقي.

إن هيمنة العنف على عالم الأنسيّة يعني نهاية الحوار وانعدام التواصل وإلغاء الحرية، وبذلك؛ فإن إدانة الفلسفة للعنف ومعارضتها لكل أشكاله إنما هو التزام بماهيتها، بمعنى أن معارضتها للعنف هو انتصار لذاتها ولحقيقتها.

وقد أسبغت منظمة الأمم المتحدة/ مكتب مكافحة الإرهاب، وصمة العنف بالتطرف بوصفه "تطرفـاً عنيفـاً يفضي إلى الإرهاب"، وأعدت، في العام ٢٠١٦م، قراراً يدعو الدول الأعضاء والمنظمات الإقليمية إلى وضع خططها الخاصة لمنعه، لما يشكله من تهديد خطير للركائز الرئيسية لعمل الأمم المتحدة، بوصفه يتجاوز الثقافات والحدود الجغرافية، ولا ينبغي ربطه بأي دين أو جنسية أو جماعة عرقية.

"التعصّب" (Fanaticism)

يجبُّ التطرف في داخله تعصباً؛ وهو الاعتقادات أو التصرفات التي تنطوي على أخذ مواقف بدون تمحيص بسبب الغيرة والحماس المفرِّط، حيث يُظهر المتعصب معايير صارمة للغاية وبتسامح قليل تجاه الأفكار أو الآراء المعارضة، وتكمن المشكلة هنا عندما تتأسس الأفكار على آراء غير مبنية سرعان ما تستحيل إلى اعتقادات، وعندما يعتقد المرء بفكرته ويؤمن بها، تسلبه فيتعصب لها، وعندما تنعدم إمكانية التدليل عليها، فيبدي المرء حرصه عليها تحت تأثير رغبة قوية، وانفعال شديد يُعمي بصيرته، ويُهيمن على إدراكه وتعقله. من هنا يتضح لنا كيف أن التطرف والتعصب لا يحضران إلا في مجال الاعتقادات والآراء والأفكار، والتي تغيب فيها الأدلة والبراهين، فمن يشك في أفكاره ومعتقداته، لا يمكنه أن يكون متطرفاً.

يُهيّج التعصب انفعالات المتطرف ويُلهب حماسه، فتغفو ملكاته العقلية، ويغيب حسّه النقدي، ويفقد القدرة على النظر والتبصر والحكم السديد، فلا يجد مناصاً من

الاحتماء بالمكون اللاعاقل وغير الحكيم فيه، أي ما يزخر به من انفعالات وأوهام وخيالات تزدريه وتطبق سيطرتها عليه، فلا يرى من الأفكار عداها ولا يؤمن إلا بها، كما يكون على استعداد للذود عنها بكل الطرائق الممكنة، بهذا يتخذ التعصب، حسب الفيلسوف "سبونفيل"، شكل نزوع دوغمائي حاقد أو عنيف، متيقن كل اليقين من إيمانه، ومن ثم يكون الإرهاب مآله (أنوار، ٢٠٢٠: ٤٠).

إن التعصب، كما يقول الفيلسوف الفرنسي المعاصر "آلان باديو" (١٩٣٧م) هو "حب الحقيقة المخيف، لكنه لا يحب إلا حقيقته هو" (أنوار، ٢٠٢٠: ٤٠)، التي يستميت للدفاع عنها، مما يجعل منه جاهلاً تسكنه نزعة ماضوية، ينظر من خلالها إلى التطور على أنه مجرد حيلة، بينما لا تتجاوز حرية الاعتقاد، عنده، كونها فخاً، في حين أن الديمقراطية عبارة عن كذبة، أما الحل فهو الخضوع والتسليم ورفض النقاش والتأويل، فالمتطرف المتعصب لا يؤمن إلا بفكرته، والتي غالباً ما تكون مشحونة بتصورات انفعالية تترجم رغباته الدفينة في بلوغ صورة

متخيلة عن "الكمال" أو "المطلق"، الشيء الذي يجعل استباحة دم الآخرين، وحتى دمه هو، أمراً يسيراً جداً.

"الإرهاب" (Terrorism)

يقود التطرف العنيف والمتعصّب إلى الإرهاب، والذي يعرفه الفيلسوف الأمريكي المعاصر "كارل ويلمان" (١٩٢٦م) بأنه "استخدام، أو محاولة استخدام الإرهاب كوسيلة من وسائل الإكراه"، كما يُعرف بأنه الاستخدام المنهجي للعنف، لخلق مناخ عام من الخوف والإكراه والترهيب لدى السكان، وقتل المدنيين، بهدف تحقيق مكاسب سياسية معينة. وحين نقول منهجياً، فإننا نعني بذلك أن الإرهاب ينشأ عن بنية فكرية صلبة نحتاج لتفكيكها، وإدراك ماهيتها، وأبعادها، فقد بينت الدراسات أن كل تنظيم إرهابي يستند إلى إيديولوجيا تأسيسية مهدت لظهوره، وبنية تنظيمية قوية، فيما يدعو الفيلسوف الفرنسي "جاك دريدا" (١٩٣٠-٢٠٠٤م)، صاحب فلسفة التفكيك، إلى تفكيك (بمعنى تحليل البنى المترسبة التي تشكل العنصر الخطابي أو الخطابية الفلسفية التي نفكر داخلها) مفهوم الإرهاب لمحاربته.

وينسجم التعريف الفلسفي للإرهاب مع تأصيل المعنى لغويـًا؛ فإذا أردنا تتبع المصطلح في الثقافتين العربية والغربية، فإننا نجد أن كلمة "إرهاب" في اللغة العربية تُشتَقّ من الفعل المزيد (أرهب)؛ يقال أرهب فلانـًا: أي خوَّفه وفزَّعه، وهو نفس المعنى الذي يدلّ عليه الفعل المضعف (رَهِبَ)، يَرْهبُ رَهْبَةً ورُهْبًا ورهب، فيعني خاف، فيقال رَهِبَ الشيء رهباَ، ورهبه أي خافه. أما في الثقافة الغربية، فإن كلمة "إرهاب" في اللغة الانجليزية تكون بإضافة اللاحقة ism أو izm إلى الاسم (Terrorize) بمعنى يرهب ويفزع، وذلك كله للدلالة على تأثير الإرهاب في نشر أجواء الخوف والرعب والهلع في المجتمعات.

ثالثاً: أنواع التطرف

أختي الشابة/ أخي الشاب،

ليس خافيًا عليك ما يحمله التطرف من مخاطر الحقد والعنف والتعصب؛ وهو الأمر الذي يتبدى من خلال أنواعه المنتشرة في عالم اليوم، والتي تحددها الفلسفة بالتطرف الديني والسياسي.

التطرف الديني

تمثل ظاهرة التطرف الديني، الموجودة في كل الأديان السماوية والأديان الأخرى غير السماوية وليست مقتصرة على معتقد أو ديانة بعينها، أحد أهم المشكلات الكبرى التي تعاني منها المجتمعات، ومنها العربية، بما لها من انعكاسات سلبية عميقة على أمنها واستقرارها.

ويُعرّف التطرف الديني بأنه تعصب شخص أو جماعة لدين معين أو حتى لمذهب في دين معين. إذ عادة ما يتسم المتطرف الديني بالحماس المبالغ فيه الذي يدفعه غالبًا إلى ترجمته في صيغة أفعال عنيفة، قد تصل حدّ القتل، وهو نوع

من التطرف يصدر عمن ينعتهم الفيلسوف ورائد التنوير الفرنسي، "فرانسوا ماري أرويه" الذي يُعرف باسم شهرته "فولتير" (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) بالمتعصبين "أصحاب الدم البارد" الذين يستسهلون حياة الآخرين لمجرد الاختلاف معهم في طريقة التفكير، فإذا كان الاختلاف مدعاة للتأمل والتفكير وإعمال العقل، فإنه، لدى المتطرف، مسوغ للعنف والقتل، ومبرر للتكفير الذي يبلغ أقصى درجاته في صيغة إرهاب وحروب دينية. وكما يرى الفيلسوف "سبونفيل" فإن الدوغمائية تؤدي إلى التعصب واللا تسامح، بينما يقود التعصب إلى التطرف، الذي يرمي بصاحبه في الوحشية والبربرية (أنوار، ٢٠٢٠: ٤١).

إن المتطرف الديني المتعصب فقد سكينة الروح التي هي شعار كل الأديان، ونأى عن جادة الصواب، ليلقي بنفسه في نار الحيرة والحقد والعداء تجاه كل مختلف، فلا حجة للمتطرف أمام نفسه أو غيره، لأنه يتعصب باسم إرادة التعصب فقط، يُشيطن الآخر المختلف، وينظر إلى نفسه وأفكاره ومُشيّعيه نظرة كلها إعجاب وعجب ويقين مرضي

بحيازة الحقيقة المطلقة، دون أدنى رغبة في معرفة أي توجه آخر، بما ينطوي عليه هذا الموقف من تضييق للفكر، وطمس للعقل، فهو لا يفكر ولا ينظر، وإذا ما أباح وأتاح ذلك، فلن يبقى تعصباً، لذلك، فهو ينحو صوب الظلامية، ويقف في وجه التقدم العلمي والحضاري للإنسانية.

إن التطرف الديني، انحراف في الحياة الدينية، وانحراف بالدين وتحريف له، فروح الدين هي الوصل والاتصال والتواصل، وليس قطع الصلات والنزوح صوب الأطراف، وهو انحراف عن معايير العدالة وابتعاد عن تحكيم العقل وأسس التفكير العقلاني والموضوعي في التقييم، رغم أن الدين اتصال عمودي مع المفارق، وانفتاح أفقي على المحايث، وإيمان بالتعدد والاختلاف والتنوع، هكذا هي روح الدين، حيث لا صوت فيه يعلو على صوت الإنسانية. أما التعصب لتصور محدد، والتشدد في تأويل معين، والتحزب حول فكرة ما، فذاك ديدن أعداء الإنسان، وأعداء الإنسانية المنفتحة، الذين يتوسلون السياسة أيضاً، كما الدين، للترويج لهذا الفكر المنغلق والمتعصب.

يترتب على التطرف الديني أثار مُدّمرة للأمن الوطني المجتمعيّ؛ فتتجلى انعكاساته على مستويات متعددة، خاصة على المجالين الأمني والاجتماعي، إذ إن تهديد السلم الاجتماعي ليس رهيناً بانتشار الجريمة ومظاهر العنف وحدها، بل أيضاً بوجود تنظيمات دينية متشددة، تطلق فتاوى وآراء دينية، تخاطب بها وجدان المستهدفين وعواطفهم وتُغيّب عقلهم، وتزرع معها الفتنة والرعب داخل المجتمع، حيث تكثر فتاوى التكفير والردة والعقاب عليها بالقتل وما يترتب عليها من خوف واضطراب نتيجة استباحة الناس وما يملكون في أرواحهم وأعراضهم وأموالهم.

التطرف السياسي

بأي معنى يمكن الحديث عن التطرف في السياسة وفق المنظور الفلسفي؟

إن كل تطرف هو، بالضرورة، تطرف في الأفكار والتصورات والاعتقادات، في معناها الأوسع والأعم، وإذا كان التطرف الديني متعلقاً بالأفكار الدينية والعقدية، فإن التطرف السياسي، الذي يعدّ من أخطر أنواع التطرف، يكون

أيديولوجياً بالدرجة الأولى، عندما يتعلق بالتوظيف السلبي لها والذي يُسقط صاحبها في تعصب يؤدي إلى نوع من الانغلاق والتزمت، يتنافى مع قيم الحرية والمساواة ويقترن بإرهاب الناس وترويعهم والترويج للرأي الواحد وإقصاء الرأي الآخر، حيث يرتبط بأشخاص وتيارات، توظف قواعد اللعبة السياسية لتكريس تصوراتها الأحادية، والذود عن أيديولوجيتها، والصراع من أجل ما تعتقد فيها من أفكار، فتغيب هنا الغاية الأسمى لكل ممارسة سياسية.

يخالف المتطرف السياسي ما انبلجت عليه الحرية السياسية من مضامين تقوم على قبول الاختلاف المذهبي والأيديولوجي، وإبطال مفعول التطرف والتعصب العنيفين، وتخطي العنف عن طريق الحوار والتوافق والإرادة العامة، وذلك خدمة للحق والعدالة والحرية والعيش المشترك. بيد أن المتطرف السياسي لا يؤمن بوجود أفراد مواطنين وأحرار، يعتنقون أفكاراً ومبادئ مخالفة، بما يشكل رفضاً للحرية السياسية والذي يعني، بالتبعية، الاستبداد والتسلط، أي هيمنة الأقلية على الأغلبية باسم سلطة ينبغي على الجميع الاعتراف بها.

وقد يتداخل التطرف الديني مع نظيره السياسي؛ وذلك عند تسييس الاعتقادات الدينية، واستغلال الدين في الشؤون السياسية، مقابل تبني السياسيين لأيديولوجيات دينية، بما يؤدي إلى الوقوع في تطرف مزدوج، ديني وسياسي، الأمر الذي يشكل خطراً مجتمعياً كبيراً لدى تقلد المتعصب الديني منصباً سياسياً، وخضوع السياسي المهتم بشؤون الناس لقوة دينية متزمتة تُحركه، أو عند تصريف مصالحه باسم السياسة، من أجل تحقيق المكاسب الشخصية.

رابعاً: أسباب التطرف

أختي الشابة/ أخي الشاب

قد يتبادر إلى ذهنك تساؤلات حول الدوافع الكامنة وراء تبني الفكر المتطرف الذي قد يؤول عملاً عنيفاً أو المسوغات التي تقف وراء انضواء الأفراد، لاسيما فئة الشباب منهم، تحت مظلة التنظيمات الإرهابية والانضمام للحركات المتطرفة. في الحقيقة أن الدوافع، التي تبزغ فكراً قد يُؤسّس لفعل يبدأ متطرفاً وينتهي ثورياً يفرض نفسه بقوة قبيل تحوله إلى تيار لاحقاً، ليست واحدة، فهي تختلف بحسب طبيعتها النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتنوعة، ومن أبرزها:

أولاً: لا ينجذب أي شخص للحركات المتطرفة التي تدّعي تقديم الحلول الجذرية للقضايا المجتمعية كافة، فثمة أشخاص لديهم قابلية نفسية للانجذاب إلى الأفكار المتطرفة منذ البداية، لاسيما من ذوي البنية النفسية القابلة للتطرف، والتي يقوم فكرها على مبدأ "مع أو ضدّ" وثقافة تضخيم

"الأنا" وإقصاء "الآخر"، والتي غالباً ما تجد هذه الظاهرة جذورها الأكثر عمقاً في التنشئة الأولى البعيدة عن حب الآخرين والتسامح معهم وقبولهم والإصغاء لما يقولون.

ثانياً: اتسام الشخصية بضعف الثقة بالنفس، مما يسهل على الآخرين التحكم بها، أو بعدم القدرة على مواجهة الضغوط الاجتماعية، أو أن تكون شخصية مغتربة عن نفسها ومحيطها معزولة ومحبطة ومتمردة ورافضة للواقع المعاش، بحيث تشكل تلك الأسباب مجتمعة، إضافة إلى اضطرابات الحياة الاجتماعية مثل التفكك الأسريّ، بيئة خصبة حاضنة للأفكار الجاهزة التي يتم تمريرها من خلال الحركات والجماعات المتطرفة، إما بدعاوى دينية مغلوطة أو مزاعم سياسية خارجية ذات أجندة خاصة، فترضخ لها تحت مبدأ "السمع والطاعة" بدون نقاش أو فهم، بما يقود إلى كوارث في النهاية.

ثالثاً: قد يندفع بعض الأشخاص، لاسيما من فئة الشباب، إلى التطرف، للبحث عن مرجعية مُطلقة يستندون إليها ويتمسكون بها. فيما قد يتحمس بعضهم إليها جراء الانفعال بالمشهد الإعلامي الذي تصوّره الحركات المتطرفة عن

انجازاتها، كما فعل تنظيم "داعش"، مستفيدة من شبكة الانترنت ووسائط التواصل الاجتماعي لبث أفكارها وتسويق أهدافها وتجنيد المتطرفين من خلالها لسهولة استقطابهم عبر منابرها المتنوعة، مقروناً ببلاغة خطابية لمخاطبة مخاوفهم وحاجاتهم، ووجدانهم عندما تسعى لمنح شعور الانتماء إلى الجماعة، والإيمان بالهدف الأعلى المشترك الأكثر سمّواً ورفعة من واقع الإنسان المتخلخل والفاقد للمعنى، فضلاً عن تعزيز نزعة الولاء والتضامن داخل الجماعة الصغيرة ذاتها، أي "التنظيم"، إذ يجري التضامن هنا غالباً عبر التماهي مع قائد الجماعة تلك، والذي تتمتع نماذجه الكبيرة بقوتها الكاريزمية بوصفها حاملة رسالة ورؤية وإرادة للتغيير.

رابعاً: ينشأ التطرف الديني من عدة أسباب؛ يتمثل أبرزها في الآتي:

١) الفهم الخاطئ للأحكام الشرعية والتعاليم الدينية، سواء أكانت أحكام الشريعة الإسلامية أم تعاليم المسيحية والقوانين الكُنسيّة، والذي غالباً ما يكون ناجماً عن جهل بالقواعد اللغوية والأصولية في استخراج هذه

الأحكام ومعرفة مبناها ومبتغاها الصريح أو الضمني، وعدم التعمق في فهم النصوص الدينية.

٢) التمسك بالمعنى الحرفي للنصوص الشرعية، في مسائل العادات والمعاملات، والالتفات إلى المسائل التي اختلف عليها أئمة أهل العلم، في الإسلام، وعلماء الدين المسيحيين، والتمسك برأي واحد فيها، والمبالغة في التحريم وتوسيع دائرة الحرام وتضييق نطاق الحلال.

٣) تأويل النصوص الشرعية للجهل فيها، وعدم التمييز بين المفاهيم الشرعية التي يُبنى عليها أساس الدين، واتباع النصوص المتشابهة والعزف عن النصوص المُحكمة البينة، وعدم تقبل الآخر والحوار معه.

٤) الإعراض عن أهل العلم والفقهاء واستفتاء العلوم من الكتب دون أن يشرحها أو يوضحها أحد، وعدم الاطلاع على تاريخ الأديان وأخذ العبر منها.

٥) حمّية الشاب الملتزم التي قد تؤدي في بعض الأحيان للوقوع بالغلو، عبر مجاوزة الحد في الأمر ومخالفة المنهج.

٦) بالإضافة إلى الوجود الحقيقي لمن يريد استغلال عن قصد الفهم المنحرف لهؤلاء وأوضاعهم الاجتماعية الهشة والمفككة أو حالاتهم النفسية المهتزة وغير السوية.

لقد أدى كل ما سبق إلى استنبات التطرف، بكل أنواعه، ودعمه وتقويته، متسبباً في تهديد السلم والاستقرار ووحدة المجتمعات وتماسكها، ونشر مناخات الذعر والخوف والرعب وفقدان الأمن والسلم، وتراجع معدلات النمو والتنمية، عند العزوف عن الاستثمار الداخلي والخارجي وارتفاع الكلفة المالية لإجراءات مكافحة الإرهاب، وبالتالي تحقيق نماء ورفاه الأفراد والمجتمعات.

خامساً: دور الفلسفة في مكافحة التطرف

أختي الشابة/ أخي الشاب،

بعد توضيح ماهية التطرف بشتى أبعاده المتداخلة من المنظور الفلسفي، سنحاول تبيان السبل والأدوات التي استخدمتها الفلسفة لمحاربته ومواجهته.

واجهت الفلسفة التطرّف بأسلوبين؛ أولاهما يعتمد البعد الأخلاقي، وثانيهما يأخذ بالبعد العقلاني المنطقي. أما بالنسبة للأسلوب الأول، فقد نهلت الفلسفة من منظومتها القيميّة الأخلاقية، الرّاسخة في فرعها الأخلاقي، منهجاً حياتياً من القيم والمبادئ والمعايير السلوكية التي تؤثر في حياة الفرد وتُوجّه مسلكه وتُنظم طريقة اتخاذ قراره نحو القيام بالمحمود والابتعاد عن المذموم في مختلف المواقف الحياتية والإنسانية، والتمييز بين الخير والشر والخطأ والصواب، لإنارة طريقه إلى صراط الحق والخير والفضيلة والنهوض به إلى أرقى المستويات الإنسانية، سعياً إلى تجسيد قيم العدل والحق والخير والسلم

والتعـاون والإيثـار والتسـامح..، وغيرهـا مـن الفضـائل السـامية والقـيم الإنسـانية العالميـة المؤسسّـة لجـوهر الحيـاة الأخلاقيـة وغايتها، والضامنة لتماسك المجتمع ووحدتـه وقوتـه وانسـجامه، والتي يعتنقها ويؤمن بها مجتمع ما، فتغدو منبعـاً للسلوك الإنسـاني ومصـدره الأسـاسـي، ومُلزمـة حتميـة لسـلوك الأفـراد، ومنظِمـة لعلاقـات الإنسـان بـالآخر والمجتمـع، حيـث لا تسـتقيم حيـاة المجتمعـات الإنسـانية مـن غيـر القـيم الأخلاقيـة، التـي تشـكل النسـيج الحيـوي لوجـود الإنسـان والمجتمـع معـاً، بينمـا يـؤدي غيابها أو تدهورها إلى تصدّع المجتمع وانهياره وتداعيه.

أما بالنسبة للبعد العقلاني المنطقي؛ فقد نادت الفلسفة بأفكـار مناقضـة لتلـك التـي يقـوم عليهـا التطـرف، مثـل سـلم "الحقيقـة النسـبية" بـدل عنـف "الحقيقـة المطلقـة"، والتأكيـد علـى منزلـة السـؤال في الفلسـفة، أي عقـل "المسـاءلة والنقـد" ولـيس "عقـل السمع والطاعة" بدون نقاش أو فهم، وترسيخ أهمية تجلي الحـق في الاختلاف، أو من خلال قلب العنف بالاختلاف إلى السلم.

فإذا كان المتطرف، كما ذكرنـا سـابقـاً، ينطلـق مـن قناعـة خاطئـة مفادهـا امتلاكـه "للحقيقـة المطلقـة"، وعـدم إتاحـة

الفرصة أمام المختلف عنه فيها للتعبير عن أفكاره وآرائه بحرية، حدّ ترهيبه وتخويفه وممارسة العنف عليه بأبشع الطرائق؛ فإن الفلسفة تعدّ مناقضة له تماماً، استدلالاً من مناهضتها لجمود الفكر المنغلق والمتعصب، من خلال دفاعها عن قيمة التفكير النقدي الذي يعتبر إعمالاً للعقل في كل ما يطرأ من قضايا وما يستحدث من أمور، بقصد كشفها والتثبت من حقيقتها وفحصها بعين الشك والكشف عيوبها، ويسمح باختلاف الأفكار والآراء من دون تعصب أو تطرف، وذلك عبر تنمية التفكير السليم ونبذ كل أشكال التعصب والعنف والإرهاب في المجتمعات، والدفاع عن حرية التفكير والاختلاف والمساءلة الدائمة مع احترام حقوق الإنسان في بحثه عن الحقيقة ذات الطابع النسبي في أي مكان من دون مصادرة حقه في البحث والتفكير.

أما سلاح "السؤال"، الذي يعتبر جوهر الفلسفة وضمانة استمراريتها عبر الأزمنة والأمكنة، فباستطاعته أن ينقل من تزمت عقل "السمع والطاعة" إلى سلم "عقل المساءلة والنقد"، وذلك عبر طرح السؤال والانخراط في فهم الأزمة ومحاولة البحث عن

الأسباب والعلل المُولّدة لها. وغاية السؤال في الفلسفة لا تنحصر في فحص أجوبة المحاور قصد افحامه بالحجة القاطعة، وإنما تشمل النظر في المعرفة وحدودها من جهة العقل، وهذه خاصية تُضاف إلى الفلسفة بفضل الفيلسوف "كانط"، ولهذا أصبحت الفلسفة بسؤالها النقدي قادرة على نقد وزعزعة الأفكار المتطرفة والمتزمتة والمتعصّبة، بوصفها آفات مجتمعيّة خطيرة، تحجبنا عن الحقيقة.

في حين يقوم مبدأ "تجلي الحق في الاختلاف" على أن "الأصل في الكلام هو الحوار، والأصل في الحوار هو الاختلاف"، فالفلسفة لم تطرح نفسها كحوار غرضه الاتفاق بين المتحاورين حول قناعة ما، وإنما حول الاختلاف عن هذه القناعة، (العالي، ٢٠١٤: ١١٧- ١١٨). فالحوار الفلسفي لا يسعى في جوهره إلى فرض تصور أو قناعة ما على أساس أنها قناعة يقينية وسليمة يجب الامتثال لها بمنطق "السمع والطاعة"، أسوة بمشكلة التطرف، والتي غالباً ما تكون عبارة فُهمت بأسلوب الاتصالية في الحوار، التي تتحدد مهمته ليس في "النقاش والتشكك والسؤال وخلق المسافات

أو إثارة مزيد من الخلافات، وإنما في البحث عما يجمع ويؤلف ويؤالف"، فهذا النوع من الحوار يخشى الاختلاف كما السؤال لكونه يخلخل القناعات، ويزعزع الخطابات المُغرضة والمتطرفة، لهذا فإنه يفترض ويوهم بأن الحقيقة مُعطاة سلفاً قبل الحوار ذاته، وفي ذلك غاية مبطنة لا تظهر، لأنها لا تفيد تلك الخطابات التي تدعو إلى العنف والكراهية ونبذ الآخر المختلف، دينياً أو ثقافياً أو سياسياً.

إن الفكر الفلسفي، بما يحمله من مبادئ وقيم ومن خصائص تدعمه، كفيل بصون الشباب، العربي عامة والأردني خاصة، من الوقوع في براثن التطرف والعنف والإرهاب، بوصفه أحد الحلول المهمة لمكافحة آفة التطرف من أجل سلامة المجتمعات واستقرارها، نظير دور الفلسفة الوازن في تحرير عقول الشباب من القيود والكوابح التي تُكبل إعمالهم للفكر والتدّبر والتأمل، وارشادهم لكيفية التفرقة بين الفكر السويّ والفكر المُتطرف، من خلال رفدهم بسلاح العقل والنقد، الذي يتيح لهم القدرة على تبصّر مواطن الأمور والنظر إليها بعين ثاقبة ومحللة وناقدة غير مُنقادّة، بما يُصعب على

الآخرين السيطرة على عقولهم وتوجيه سلوكهم بحيل مخاطبة الوجدان وترويج الشائعات والمغالطات المُغرضة.

مثلما يساعد الفكر الفلسفيّ على التخلص من الآراء والاعتقادات الخاطئة، وعدم التسليم بصحة فكرة أو شيء ما بدون اختباره والاقتناع به والتثبت من مصداقيته، عبر إعمال العقل والتأمل والتدّبر العميق للتوقف عند أصل الظاهرة والأسباب الدافعة لها وتشخيصها بتروٍ وعدم تبني الأفكار والمسلمات الجاهزة بيسّر، وذلك في إطار انشغال الفلسفة بتفكيك خطاب التطرف وإغلاق المسارب التي تقود إليه.

ماذا نفهم؟

- إن الفلسفة تقف بشراسة ضدّ التطرف، تنظيرياً ومنهجياً وعملياً، عبر إعلاء القيم الإنسانية وإعمال الفكر والعقل والنقد والحوار وتعزيز شرعية الاختلاف، وجَبّ الخطابات المحرِّضة على العنف والكراهية والإرهاب، والتي تشيع مناخات الذعر والخوف والترهيب وتهدد أواصر السلم والأمن والاستقرار المجتمعي.

- يبزُغ التطرف من بين ثنايا مثالب الغلوّ والمبالغة والتعنت، في عقيدة أو فكر أو مذهب مما يختص به دين أو جماعة أو حزب، صوب إتيان اتجاه أحاديّ يتحي أقصى درجات التشدد بعيداً عن حدّ الاعتدال، مع إغفال ما يمكن للاتجاهات الأخرى أن تتضمنه من معنى ومعقولية وصدق.
- إن التطرف يحمل في طياته مخاطر الحقد والعنف والتعصب؛ وهو الأمر الذي يتبدى من خلال أنواعه المنتشرة في عالم اليوم، والتي تحددها الفلسفة بالتطرف الديني والسياسي.
- إن التطرف قد ينتقل من خانة الفكر، بدون مبارحة آثاره المُدمرة، إلى شق السلوك الظاهري سبيلاً لتحقيق هدفه لاستبعاد "الآخر" وإقصائه وربما القضاء عليه.
- إن هناك علاقة تتابعيّة وشيجة تربط بين التطرف والتعصّب والعنف والإرهاب وتقود إلى تبعات مجتمعيّة جسيمة، فالتطرف مجبول بالعنف، عند تحوله عملاً عنيفاً، ولدى التزامه ناصية التعصّب الفكريّ الذي يقود إلى الإرهاب، الذي لا يمكن إلا أن يكون عنيفاً.

- تأخذ الذات المتطرفة، سواء أكانت فرداً أم جماعة أم حركة تنظيمية، بناصية الأطراف والهوامش السطحية، دون العمق والجوهر، تعبيراً عن موقفها الكارِه للمركز، الذي قد يكون دولة أو أمة أو جماعة، والمنطوي على صنوف الحقد والعداوة والبغض والنقمة، الناشئة إما بتوجه خاص أو بانجرار وراء حركة ما أو لتحقيق هدف معين أو نتيجة الظروف المجتمعيّة المحيطة، بما يجعلها، في المحصلة، خارجة عن سُنّة القوم ودينهم، عقدياً أو سياسياً، بل وأيديولوجياً أيضاً.
- إن المتطرف يتّسم بالتعصّب والجمود الفكري، وانغلاق التفكير والعقل، وضيق الأفق، وأحادية الرؤية، ورفض المناقشة العقلانيّة، والتشبث بما يدّعيه "حقيقته المطلقة"، حدّ رفض سيادة القانون والتعددية والمبادئ الديمقراطية.
- إن المتطرف الديني لا يقبل "الآخر" المختلف عنه، فكراً واعتقاداً، ولا يتسامح معه ويرفض مناقشته، ويحاول فرّض رؤيته الخاصة عليه بالترهيب والتخويف والعنف والإرهاب، حدّ استخدام القوة واللجوء إلى التكفير والقتل.

- ينشأ التطرف الديني من عدة أسباب؛ يتمثل أبرزها في: الفهم الخاطئ للأحكام الشرعية والتعاليم الدينية، التمسك بالمعنى الحرفيّ للنصوص الشرعية، أو تأويلها للجهل فيها، الإعراض عن أهل العلم والفقهاء واستفتاء العلوم من الكتب دون أن يشرحها أو يوضحها أحد، حميّة الشاب الملتزم التي قد تقوده، أحيانًا، للوقوع بالغلو، بالإضافة إلى الوجود الحقيقي لمن يريد استغلال عن قصد الفهم المنحرف لهؤلاء وأوضاعهم الاجتماعية الهشة والمفككة أو حالاتهم النفسية المهتزة وغير السوية.
- التطرف يشكل تهديداً للسلم والأمن الاجتماعيين وللاستقرار ووحدة المجتمعات وتماسكها، وينشر مناخات القلق والرعب والخوف وفقدان الأمن، ويؤدي إلى تراجع معدلات النمو والتنمية المجتمعية، ويقوّض قيم السلام والحوار والتسامح والتعدد، ونماء ورفاه الأفراد والمجتمعات.
- إن الفكر الفلسفي، بما يحمله من مبادئ وقيم ومن خصائص تدعمه، كفيل بصون الشباب، العربي عامة

والأردني خاصة، من الوقوع في براثن التطرف والعنف والإرهاب، فهو أحد الحلول المهمة لمكافحة آفة التطرف من أجل سلامة المجتمعات واستقرارها.

- إن الفلسفة تحارب التطرف، عبر المناداة بأفكار مناقضة لتلك التي يقوم عليها، مثل المناداة بسلم "الحقيقة النسبية" بدل عنف "الحقيقة المطلقة"، والتأكيد على منزلة السؤال، أي عقل "المساءلة والنقد" وليس "عقل السمع والطاعة" بدون نقاش أو فهم، وترسيخ أهمية تجلي الحق في الاختلاف.
- من أبرز الأدوات الفلسفية لمحاربة التطرف؛ النقد، وإعمال العقل والمنطق، والنظر البرهاني المستند على البديهيات العقلية ومعطيات الواقع والتجربة، والدعوة إلى التأمل والتفكر والتدبر، بما يسهم في رفع وعي العقل الجمعي للمجتمعات، ضد مخاطر ما يهدد أمن وسلامة المجتمع، جراء آفة التطرف والإرهاب.
- إن للفلسفة دور وازن في تحرير عقول الشباب من القيود والكوابح التي تُكبل إعمالهم للفكر والتدبّر والتأمل،

وارشـادهم لكيفيـة التفرقـة بـين الفكـر السـويّ والفكـر المُتطرف، من خلال رفدهم بسلاح العقل والنقد، الذي يتيح لهم القدرة على تبصّر مواطن الأمور والنظر إليها بعين ثاقبة ومحللة وناقدة غير مُنقادة، بما يُصعب على الآخرين السيطرة على عقولهم وتوجيه سلوكهم بحيل مخاطبة الوجدان وترويج الشائعات والمغالطات المُغرضة.

- يساعد الفكر الفلسفيّ على التخلص من الآراء والاعتقادات الخاطئة، وعدم التسليم بصحة شيء دون اختباره والاقتناع به والتثبت من مصداقيته، عبر إعمال العقل والتأمل والتدبر العميق للتوقف عند أصل الظاهرة والأسباب الدافعة لها ومعالجتها بتروٍ وعدم تبني الأفكار الجاهزة بيسر.
- إن ثقافة الفلسفة وروحها وعقلها وأدواتها تعد أفضل وسيلة لتحصين الشباب ضد آفات التعصب والتطرف والانزلاق نحو مهالك الإرهاب، حيث تعمل، بتعاليمها وقيمها، على تهذيب النفس والارتقاء بها من واقع

الارتهـان الفكـري للآخـر وللتطـرف، وتجعـل نظـرة الإنسان للأشياء أكثر شمولية وعمقـًا.

نشاط عقلي

السؤال الأول: إذا كانـت الفلسـفة تعبيـراً عقليـًا وفكريـًا وكونيـًا، يهدف إلى الإعلاء من كرامة الإنسان بوصفه إنسـانـًا أولاً وقبـل كـل شـيء، فكيـف تعمـل، برأيـك، علـى مواجهـة التطرف، وبالتبعية، العنف والإرهاب؟

السـؤال الثـاني: مـا هـي القيـم الإنسـانية التـي تـدافع عنهـا الفلسفة وتشكل منظومة مضادة للتطرف؟

السؤال الثالـث: هـل يمكـن للفلسـفة، برأيـك، أن تصبـح أداة فاعلـة لتحريـر الواقـع ومعالجتـه ممـا ينتـج مـن خطابـات تدعو إلى الكراهية والعنف والتطرف، وكـل أشـكال التزمـت والإرهاب؟

السؤال الرابع: كيـف تعمـل الفلسـفة علـى تعليـم الـنشء أسـلوب تهـذيب السـلوك والتفكيـر وقواعـد الفكـر النقـدي العقلاني الذي يخلخل خطابات التطرف والتزمت والعنف؟

الفصل الثاني

الفلسفة والاغتــراب الثقافي

أختي الشابة/ أخي الشاب

هـل قـدّرت يومـاً بـأن ثمـة جانبـاً سـلبياً للتحـولات، الاجتماعية الثقافية والعلمية التكنولوجية، الحياتيّة الوازنة التي يشهدها العالم، قد يؤثّر في ذهن الإنسان وبنيته النفسيّة ونظرته للوجود؟ لربما يصيبك هذا التساؤل لوهلة بالدّهشة إذا اكتفيت بشقه الأول فقط لتعليل تجليّات التقدم الزاخرة في مواطن الحياة المختلفة وسبل المعيشة، وهو أمر صائب في الخانة الايجابية منه، غير أن للفلاسفة رأياً أكثر عمقاً، عندما ربطوا تلك المتغيرات، مع أسباب أخرى، بحالة من الاغتراب الثقافي قد تصل أحياناً إلى سلوكيات حادّة، تمسّ أسس المواطنة الفاعلة والأمن المجتمعيّ.

إذ بالرغم من المُنجزات التي حققها الإنسان الحديث في مختلف حقول المعرفة والعلوم والإبداع الفكري، مما يَعد بمزيد من احتمالات التقدم في المديين القريب والبعيد، إلا أن كثيراً ما يتردد في أدبيات الاغتراب بأنه يزداد اغتراباً عن المجتمع والدولة ومؤسسات العمل والتربية والعائلة والدين

والحياة بشكل عام، بل عن ذاته أيضـًا، بما لا يقتصر على المجتمعات الصناعية فقط، بل قد يتعداها إلى الإنسان المعاصر في المجتمعات النامية، ومنها العربية.

وقبل تفسير كنْه الترابط الثنائيّ الذي أوصل بالمغترب إلى أتوّن غربتّه؛ سنحاول أولاً توضيح مفهوم الاغتراب الثقافي من المنظور الفلسفيّ، باعتباره من أهم المفاهيم الفكرية البارزة في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، وحجر الزاوية في بناء الرؤية الفلسفية للعالم والإنسان معًا، وبوصفه من أبرز التحديات التي تطال الفرد نفسه، وتمسّ علاقته بوطنه وبحسّه وانتمائه الوطني وبمسؤولياته تجاه مجتمعه.

أولاً: تعريف الاغتراب الثقافي (Cultural Alienation)

طبقـًا لما تعارف عليه الفلاسفة؛ لاسيما في القرنين التاسع عشـر والعشـرين، فـإن الاغـتراب ظـاهرة تضـرب بجـذورها تاريخيـًا في عمق الوجـود الإنسـاني. وإذا أردنـا تأصيل المعنـى لهـذا المصـطلح لغويـًا، وتتبعـه في الثقـافتين العربيـة والغربيـة، فإننا نجد أن كلمة "الاغتراب" في اللغة الغربية تعني، في أبسـط تعريفاتها، البعد عن الأهـل والـوطن، كمـا اسـتخدم المصـطلح للدلالة على معاني "الانفصال وغربة النفس والخضوع" (شتا، ١٩٩٣: ٥). وقد استخدمت الكلمة العربية "غربة" في سـياقين أساسـين: أولهمـا دينـي، والآخـر نفسـي –اجتمـاعي، ويشـير المعنـى الـديني إلـى انفصـال الإنسـان عـن الله سـبحانه تعـالى، والـذي عبّـرت عنـه قصـة خلـق آدم عليـه السـلام وهبوطـه مـن الجنة إلى الأرض كما يجسّدها القرآن الكريم، فيما بـرز معنـى الاغتراب ببعده النفسي والاجتماعي عنـد الأديـب العربـي أبـو حيان التوحيدي (رجب، ١٩٨٨: ٤١، ٤٢)، والـذي اسـتخدم

الكلمة ليعبر عن نوعين منها، هما: الاغتراب الناجم عن نزوح الشخص بعيداً عن وطنه وثقافته، والاغتراب حين يكون الشخص غريباً في وطنه ويتسم بنوع من التحدي ورفض التقولب بأفكار مجتمعه، وهذا ما يشير إليه التوحيدي بقوله أنه "قصيٌّ عن المعهود" (شتا، ١٩٩٣: ٢٦، ٢٥).

أما الترجمة الأجنبية للكلمة؛ فقد اشتقت الكلمتان الإنجليزية (Alienation) والفرنسية (Aliénation) الدالتان على الاغتراب من الكلمة اللاتينية (Alienatio)، وهي اسم يستمد معناه من الفعل اللاتيني (Alienare) بمعنى ينقل أو يحول أو يسلم أو يبعد، وهذا الفعل مشتق من كلمة لاتينية أخرى (Alienus) بمعنى الانتماء إلى الآخر، وهي مشتقة بدورها من كلمة (Alius) بمعنى "الآخر" أو "آخر" كموضوع (رجب، ١٩٨٨: ٣١ – ٣٢). وقد استخدمت الكلمة اللاتينية "الأصل" قديماً للتعبير عن الإحساس بالغربة أو الانعزال، سواء عن الذات أو الآخرين.

ويمكن من خلال معرفة الأصول اللغوية اللاتينية الدالة على الاغتراب ونظيرتها الإنجليزية والفرنسية، أن نتتبع ثلاثة

سياقات رئيسة استخدمت فيها الكلمة، وكان لها أثرها في الاستخدامات الفلسفية بعد ذلك لمصطلح الاغتراب، الذي يضم أنماطاً أخرى متداخلة إلى جانب الاغتراب الثقافي كالنفسي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني. فالسياق الأول يخص الجانب القانوني؛ حيث استخدم الفعل اللاتيني (Alienare) ليدل على نقل أو تحويل أو تسليم ملكية شيء من شخص لآخر، سواء عن طريق القصد والإرادة في المعنى القانوني للكلمة، أو الاستيلاء ووضع اليد والإلزام من قبل آخر. وقد استخدم الفيلسوف الهولندي في القانون الدولي "جورتيوس" (١٥٨٣ – ١٦٤٥) الكلمة اللاتينية والفعل المشتق منها ليبين حقوق الملكية في المجتمع المدني، أي حقوق النقل والتسليم، حيث يرى أن الفرد ينتقل من الحالة الطبيعية التي كان يعيش فيها متمتعاً بحقوق مطلقة إلى حالة المجتمع المدني، حينما يتنازل مع غيره من الأفراد عن هذه الحقوق طواعية إلى إنسان واحد معين يمثل السلطة السياسية، وقد وجدت هذه الفكرة صداها العميق لدى أصحاب نظرية "العقد الاجتماعي"، مثل

"هوبز" و"لوك" و"روسو"، فاستخدموا مصطلح الاغتراب للدلالة على نقل الملكية السياسية.

أما السياق الثاني المتعلق بالاستخدام النفسي – الاجتماعي للكلمة؛ فيشير إلى ما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية، وما يشعره من غربة ذاتية أو خارجية وفتور أو جفاء في علاقته بالآخرين. في حين يتعلق السياق الثالث بالاستخدام الديني؛ حيث استخدمت الكلمة اللاتينية فيه للدلالة على انفصال الإنسان عن الله سبحانه تعالى بفعل الخطيئة، كما أسلفنا.

وثمة مصطلحان آخران لا يقلان أهمية عن السابق في تاريخ الاغتراب، استخرجهما الفيلسوف والاقتصادي الألماني "كارل ماركس" (١٨١٨ - ١٨٨٣م) من فلسفة الفيلسوف الألماني "جورج فيلهلم فريدريش هيجل" (١٧٧٠ - ١٨٣١م)، حيث يشير المصطلح الأول إلى الجوانب الخارجية للذات، فيؤكد المصطلح على معنى التشيؤ (Reification) والذي يعني تحول الفرد إلى شيء ومعاملته كموضوع، "فتشيؤ" العلاقات الإنسانية، فلسفياً،

يعني تحول الموجودات الإنسانية الحية إلى "أشياء" أو "موضوعات" جامدة، تحولاً يمكن أن تظهر معه في سوق الحياة كما لو كانت بضائع أو سلعاً قابلة للبيع والشراء (رجب، ١٩٨٨ : ٣٥)، حين يفقد توحده مع ذاته في عملية "التخارج" ويصبح لا شخصياً (Depersonalized) باللغة المعاصرة، حينما يجعل شيئاً ما خارجياً أو مفارقاً، ويقصد به فلسفياً أن الموضوع أو عالم الظواهر هو إبداع الروح، أو متخارج عنها، إذ يقوم العالم الروحي باستخراج العالم الموضوعي من ذاته ليجعله متخارجاً عنه، فالتخارج هنا فعل إبداعي تقوم به الروح حينما تكون مقيدة في جسد، وينسب الفعل إلى الشخص الموجود، وكأنها انفصلت عن ذاتها في صورة إبداع حر لتحل في وجود عيني، أي تحل الحرية في الضرورة، وهذا المعنى يكشف عن حالة الاغتراب في قمة تفسيرها من قبل الفلسفة المثالية. بينما يشير المصطلح الثاني إلى الانفصال، أي انفصال ذات المرء عن الآخرين، وهو بذلك يعني "الحالة الاجتماعية والسيكولوجية، التي تكون فيها خبرات الفرد مفعمة بإحساسه بالبعد أو الانفصال عن

مجتمعه أو جماعته" (شتا، ١٩٩٣: ١٩)، أي أنه يعد بديلاً للمعنى السلبي للاغتراب في المجتمع المعاصر.

وهنا سنتوقف قليلاً عند معنى "التشيؤ" لتوضيحه أكثر لما له من تأثير في عملية الاغتراب الثقافي. "فالتشيؤ" يعني تحويل الظاهرة الإنسانية (الإنسان) إلى شيء، ليس له أي دور في تأكيد ذاته الإنسانية بعدما استلبت منه قدراته العقلية وإرادته وأصبح في حالة "صنميّة" أو سلعية، أو تحول إلى ذرة اجتماعية ليس لها لون أو طعم أو رائحة، إلا تلك التي يريدها عليها من عمل على تشيئها، سواء أكانت الهياكل أو الأنساق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتكنولوجية، بحيث يشعر الإنسان بقوتها وهيمنتها واستمرارية سلطتها، مقابل ضعفه وقلة حيلته ورضوخه لها. فالتشيؤ ظاهرة يصبح في ظلها الناس مجرد موضوعات تُسيرهم ميولات تكنولوجية واقتصادية وسياسية وأيديولوجية في آن معًا، وتحدد سلوكهم، كما هي الحالة التي تصيب الفرد والمجتمع تحت مظلة التقنية التكنولوجية، التي تفرض علاقات إنسانية تنهض على الكم والتراكم الانتاجي

والاستهلاك والتشبث بالأشياء المصنوعة وحب تملكها، الذي يصبح الحافز الرئيس للأفراد، مما يجعلها تتحكم في الإنسان، ومن هنا تصبح قيمة الإنسان ومكانته مرتبطة بقدراته على تملك الأشياء، والتي ستعمل بالضرورة على تغريب الإنسان واستلابه وتشيئه.

وبعد أن عرّفنا الاغتراب، لغة واصطلاحاً، ننتقل إلى توضيح معنى الاغتراب الثقافي، وهنا لا بد من تفكيك المصطلح لتبيان المعنى المقصود بمفهوم الثقافة وعلاقته بمفهوم الحضارة، في ظل الخلط بينهما.

فالثقافة (Culture) في اللغة العربية من الفعل ثقف أي صار حاذقاً، وتثقيف الشيء يعني تسويته وتهذيبه وصقله. والثقافة تعني التسوية والتهذيب والصقل، وقال ابن منظور في لسان العرب (١٩٩٠) ثقف: ثقِفَ الشيء ثقفاً وثقافاً وثقوفة: حذقه. ورجل ثَقْفٌ وثَقِف وثَقُف: حاذق فَهِم، وأتبعوه فقالوا ثَقْفٌ لَقْفٌ. ويقال: ثقف الشيء وهو سرعة التعلم. وثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقاً خفيفاً. فقد اشتق اسم الثقافة من "ثقف"، وهو لفظ قرآني أساساً. والثقافة كلمة عريقة في اللغة العربية

بمعنى صقل النفس، والمنطق والفطانة، وهو بمعنى تثقيف الرمح أي تسويته وتقويمه. ثم استعمل للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات. وفي اللغة اللاتينية تعني الفلاحة والتهذيب أو الزراعة والتحصيل العلمي. أما في اللغة الألمانية والأدبيات الأمريكية فتستعمل كلمة ثقافة مرادفاً لكلمة حضارة، إذ ينطوي مفهومها على معنيين اثنين: أحدهما ذاتي هو ثقافة العقل، وثانيهما موضوعي هو جملة الأحوال الاجتماعية والمنجزات الفكرية والفنية والعلمية والتقنية وأنماط التفكير والقيم السائدة، أي كل ما يتداوله الناس في حياتهم الاجتماعية من مكتسبات تحصل بالتناقل والتعلم. إلا أن اللغة العربية تميز بوضوح بين "الحضارة" وهي الكلمة التي تدل على مجموعة المنجزات الاجتماعية، و"الثقافة" وهي الكلمة التي تحمل مضموناً تقريظياً لحالة التقدم العقلي وحده (خليفة، ٢٠٠٣: ٥٢ - ٥٣).

أما اصطلاحاً؛ فقد عُرفت "الثقافة" بمفهومها العصري المحدد لأول مرة سنة ١٨٧١م بواسطة عالم الأنثروبولوجيا البريطاني "إدوارد تايلور" (١٨٣٢ - ١٩١٧م)، رغم أنها

تاريخيـاً كانـت موجـودة ومتداولـة قبـل القـرن التاسـع عشـر الميلادي. فقـد قـدّم "تـايلور" أول تعريـف للثقافـة نصّـه "إن "ثقافة" أو "حضارة"، هي هـذا الكـل المركـب الـذي يشـمل المعرفة، والمعتقدات والفن والأخـلاق والقـانون والعـادات وكـل القـدرات والعـادات الأخـرى التـي يكتسـبها الإنسـان بوصـفه عضـواً في المجتمـع" (تـايلور، ١٨٧١: ١). وبـذلك تجـد أن الثقافـة بالنسـبة إلـى "تـايلور" تعـبر عـن كليـة حيـاة الإنسان الاجتماعية وتتميز ببعـدها الجمـاعي. غيـر أن تـردده بين مفهومي "الثقافة" و"الحضارة" كان وليد سياق العصـر، وإذا ما انتهى إلى تفضيل "ثقافـة" فلأنـه فهـم أن "الحضـارة" حتـى إن وضـعت في معناهـا الوصـفي الخـالص فإنهـا تفقـد خاصـية المفهـوم الإجرائـي حالمـا تُطبـق علـى المجتمعـات البدائيـة، وذلـك بفعـل أصـلها الاشـتقاقي الـذي يحيـل علـى تكـوين المـدن، وبفعـل المعنـى الـذي اتخذتـه في العلـوم التاريخيـة، رئيسـياً، بوصـفها الإنجـازات الماديـة الضـعيفة النمـاء في تلـك المجتمعـات، بينمـا نطـاق "الثقافـة أشـمل". (كوش، ٢٠٠٧: ٣١- ٣٢). وقد قام العلماء من بعده بإجراء

التعديلات والتغييرات على التعريف ولكن ظلت جميعها تدور في فلكه ولا تناقضه أو تعارضه.

وتعدّ الثقافة سلوكًا مكتسبًا وليس وراثيًا، فلكل مجتمع مجموعة من القواعد أو المعايير الحاكمة للسلوك والمعرفة، حيث يكتسب الفرد في ظل هذه المعايير منذ ولادته، ثقافة مجتمعه، ولكي يكون معنى الثقافة متميزاً يجب التفريق بينها وبين الحضارة والعلم والتربية والتعليم، فالثقافة ليست مجموعة من الأفكار، بل نظرية في السلوك، وطريقة حياة خاصة تميز أمة عن سواها من الأمم الأخرى وتُسبغ مقوماتها، وتمثل تاريخها وحاضرها ومستقبلها بجانبه المعنوي الروحاني والاجتماعي الخُلقيّ وليس المادي، مثل العمران والتكنولوجيا، وتُكسبها هويتها العلمية والتاريخية والأدبية ومنظومتها الأخلاقية، بما تحويه من المبادئ والقيم والعقائد واللغة والقواعد والمعايير والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب، فلكل مجتمع ثقافته التي يتسم بها، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها، وترسم طريقة حياة الشعب الذي يعيش بين ظهرانيها، فتظهر في فنونهم ونظامهم

الاجتماعي وعاداتهم وأعرافهم، بما يؤكد عوامل التفاعل والتعايش المشترك في تشكيل ثقافة مشتركة كحالة جمعيّة.

أما مفهوم الحضارة (Civilization) فقد ظهر في الغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، غير أن العالِم والمؤرِخ ومؤسس علم الاجتماع الحديث "عبد الرحمن ابن خلدون" (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) خاض في موضوعه فتناول جانب العمران منه، أحد فروع الاجتماع الإنساني، وذلك عبر تبيان الفرق، في مقدمته، بين العمران البدوي والعمران الحضري، وجعل البداوة أصل الحضارة، التي ربطها بالسيادة، أي التملك والاستقرار لضمان النمو والازدهار، وما أتبعها من تمييز بين نمطين من الحضارة هما: النمط البدائي أو البداوي، والنمط المدني، وهو ما أطلق عليه مصطلح "العمران البشري" الذي يتفاوت بين مجتمعات "أهل الوبر" ومجتمعات "أهل المدر"، ويقصد بالأولى المجتمعات التي تلعب خلالها حرفتا الزراعة والرعي الدور الأساسي على صعيد الانتاج، بينما يقصد بالثانية "المجتمعات المدينية"، التي تنتحل الصنائع والتجارة (خليفة، ٢٠٠٣، ٥٦ - ٥٧). وعلى ذلك؛

فإن العمران المزدهر يعني في نظر "ابن خلدون" احتراف الصناعة والتجارة، وهي لذلك مجتمعات تتسم حضارتها بالتعقيد والتركيب لأنها لا تهتم فقط بتحقيق الحاجات المادية الضرورية والبسيطة للإنسان فحسب، بل تعني أيضاً بإشباع الحاجات العقلية والفكرية والروحية والجمالية أيضاً.

ومن ذلك نجد أن هناك من قصِر مفهوم "الحضارة" على التقدم العلمي والتكنولوجي فقط من الثقافة الخاصة بأي مجتمع، بينما تختص الثقافة بالمعنويات والروحيات كالقيم والمعتقدات والعادات والتقاليد وطرق التفكير، فهي "مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات"، بدائياً كان أو متقدماً راقياً (خليفة، ٢٠٠٣: ٥٧). وهناك من يرى أن الحضارة تشكل الإطار الأكثر شمولاً واستيعاباً لنشاط الإنسان وإنجازاته المادية والعقلية، قديماً وحديثاً ومستقبلاً، انطلاقاً من عدم إمكانية تجاهل العلاقة بين المظاهر المادية والفكرية في حياة أي شعب من الشعوب، مثلما لا نستطيع نفي التأثير المتبادل بينهما، حيث لا يعيش أي شعب، مهما كان بدائياً، بلا حضارة، رغم

اختلاف المستوى الحضاري من أمة لأخرى، نظراً لاختلاف النظر إلى الحياة وأسلوب التفكير والعادات والتقاليد.

وفي ضوء ذلك؛ يمكن النظر إلى الثقافة باعتبارها الجانب الحي والفعال من الحضارة، والذي لم يفقد وظائفه المباشرة، والممثلة في مختلف أنماط الفعل والسلوك والتفكير السائد بين الناس، والمنظم لحياتهم والحائز على درجة مقبولة من التقبل من جانبهم. ويمكن اعتبار الثقافة جزءاً من الحضارة، إذ تعنى الجوانب العقلية والوجدانية في المقام الأول، هذا عند الحديث عن الحضارة في طورها الرأسمالي، أما حضارة مجتمعات ما قبل الرأسمالية، وخاصة في عصور ما قبل التاريخ، فإن مفهوم الثقافة يتسع ليشمل مجموعة المعارف الأولية بصدد جوانب الحضارة المادية وغير المادية. لذلك يرى البعض أن تطور الثقافة يعتبر مقدمة لتقدم الحضارة وازدهارها وأنه لا وجود للحضارة بدون ثقافة. ويمكن أن نميز بين ثلاثة معان رئيسة للفظ الثقافة تبدأ بالمعنى الأوسع وتنتهي بالأضيق: فالأول هو كل ما يضيفه الإنسان إلى ما يتلقاه من الطبيعة أو ما يجده فيها، بينما يكتفي المعنى الثاني

بالجانب المعنوي فقط، وفيه تشمل الثقافة العادات والقيم التي يتميز بها مجتمع عن آخر، وأسلوب الحياة وطرق التفكير التي تسود حضارة معينة دون غيرها، أما المعنى الثالث فهو الأضيق، حيث تشير الثقافة فيه إلى النواتج الرفيعة التي لا يبدعها ولا يتذوقها إلا فئة محدودة من الناس داخل المجتمع الواحد، كالشعر والموسيقى والفن التشكيلي والكتابات الثقافية بمختلف أنواعها (زكريا، ١٩٨٨: ١٥- ١٦).

تستطيع أن تلاحظ مما سبق أن الاغتراب الثقافي يُراد به، بشكل عام، ابتعاد الفرد عن الثقافة الخاصة بمجتمعه، من حيث العادات والتقاليد والقيم السائدة، ومخالفة المعايير التي تضبط سلوك أفراده، حيث نجد الفرد يرفض هذه العناصر وينفر منها ولا يلتزم بها، ويفضل كل ما هو غريب وأجنبي عنها (زهران، ٢٠٠٤: ١١٥). ويعكس الاغتراب ضآلة علاقات الشخص الاجتماعية من حيث الشعور بالاندماج أو بوجود القيم المشتركة بينه وبين محيطه الاجتماعي، فهو يعني حالة شعور الشخص بالغربة أو العزلة عن الآخرين، في بيئة العمل والمجتمع. فالفرد لا ينغمس في العلاقات الشخصية أو في أي

من المجالات العامة، مثل الشئون العامة والعالمية، ويكون لديه الشعور بالعجز وأنه لا يملك هدفًا، لأنه لا يمكنه السيطرة على مصيره الذي يتم تحديده من قبل عوامل خارجية. ويشير الاغتراب الثقافي إلى حالة الشخص النفسية وإلى تكوينه الثقافي بما يمس شخصية أمته الثقافية ومكوناتها.

ويؤدي الاغتراب الثقافي، عادة، إلى الاغتراب الاجتماعي، عبر استجابات سلوكية سلبية كالانسحاب والعزلة الاجتماعية، تعبيراً عن حالة الانفصال بين الفرد وبيئته، فينشأ عنها مجموعة سلبية من النتائج، مثل الغربة الثقافية والشعور باليأس وانعدام الأمل وحالات التوتر والقلق النفسية.

ثانياً: النظريات الفلسفيّة المُفسّرة للاغتراب الثقافي

أختي الشابة/ أخي الشاب

إذا كانت الغربة عن المكان تتمثّل في البعد عنه جغرافيـًا، فكيف تتحوّل الغربة الداخلية الذاتية إلى اغتراب ثقـافي؟ لقـد انشـغل الفلاسـفة بتقـديم تفسـيرات متنوعـة عـن الاغـتراب ومقاربته ببعده الثقافي، حيث احتل مفهوم الاغـتراب مكانـة وازنة في الفلسفة، وعند الفلاسفة، الذين تعاطوا معه وقـدموا النظريات المفسرة له ولطرائق معالجته.

يعـدّ "هيجـل" أول مـن اسـتخدم مصـطلح الاغـتراب في فلسـفته اسـتخداماً منهجيـًا في كتابـه "ظاهريـات الـروح" مستفيداً مـن محـاولات سـابقة استمد منهـا فكرتـه الأساسـية عنــه، مثــل فلاســفة العقــد الاجتمــاعي (مثــل الفيلســوف الإنجليزي وأحـد أكـبر فلاسـفة القـرن السـابع عشـر بـإنجلترا وأكثــرهم شــهرة، "تومــاس هــوبز" (١٥٨٨- ١٦٧٩م)، والفيلسـوف والمفكـر الانجليـزي "جـون لـوك" (١٦٣٢-

١٧٠٤م)، والفيلسوف ورائد التنوير الفرنسي "جان جاك روسو" (١٧١٢- ١٧٧٨م))، وفلاسفة المثالية الألمانية (مثل الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" (١٧٢٤- ١٨٠٤م)، "يوهان فيشته" (١٧٦٢- ١٨١٤م)، "فريدريك شيلر" (١٧٥٩- ١٨٠٥م))، حيث تعدّ نظرية العقد الاجتماعي المصدر الفلسفي الذي استخدم فيه مصطلح الاغتراب قبل "هيجل" بمعناه القانوني. وتقوم الفكرة الرئيسة لهذه النظرية على تنازل الأفراد أو تخليهم عن بعض حقوقهم الطبيعية من أجل تحقيق مصلحتهم وأمنهم في ظل مجتمع أو دولة سياسية تحميهم، وإضافة لذلك المعنى القانوني للاغتراب، نجد معنى آخر له وتصوراً مختلفاً لدى فلاسفة المثالية الألمانية، وهو الاغتراب بمعناه الميتافيزيقي أو بمعنى التخارج، وهي العملية التي تضع الروح بمقتضاها عالم الظواهر خارجها كنتاج لعملية إبداعية تقوم بها، والتي استعملها "فيشته" ابتداءً ليقصد بها "تخارج الموضوع عن الذات"، فالموضوع من وضعِ الذات وتجلٍ من تجلياتها، حيث العالم الظاهري (الموضوع) إنما هو نتاج الروح

(الذات)، إنه ليخرج، أي عن الروح ويضعه الروح بوصفه شيئًا آخر غيره، غريبًا وخارجًا عنه (رجب، ١٩٨٨: ٩٧).

ومن هنا نستطيع أن نستخلص أصول المصطلحين اللذين استخدمهما "هيجل" للتعبير عن الاغتراب؛ مصطلح "التخارج"، والذي يشير عنده إلى العملية التي تضع بمقتضاها الذات جزءاً من ذاتها في العالم الخارجي، وبعد ذلك إما أن تتعرف الذات على ذاتها في العالم الذي أنتجته فتتكامل معها، أو تشعر بالغربة عن ذلك العالم وبأنه لا ينتمي إليها فتنفصل عنه، فيما يشير المصطلح الآخر إلى حالة "الانفصال" التي تحياها الذات حين تعجز عن التعرف على ذاتها في العالم الخارجي، وهو اغتراب سلبي و"تاريخي" حيث يرتبط بمراحل تاريخية معينة وليس متأصلاً في وجود الإنسان (حماد، ١٩٩٥: ٥٦).

عرّف "هيجل" "الاغتراب"، بأنه حالة اللاقدرة أو العجز التي يعانيها الإنسان عندما يفقد سيطرته على مخلوقاته ومنتجاته وممتلكاته، فتوظف لصالح غيره بدل أن يسطو هو عليها لصالحه الخاص. وبهذا يفقد الفرد القدرة على تقرير مصيره والتأثير في مجرى الأحداث التاريخية بما فيها تلك التي تهمه وتسهم بتحقيق

ذاته وطموحاته (Rae، 2012)، كما ينشأ الاغتراب عنده حينما يطرأ تغير في مفهوم شخص ما عن ذاته، بما يتمثل في عدم قدرة العقل أو الروح على التعرف على ذاته الحقّة.

تستطيع أن تلحظ هنا المعنيين اللذين استخدمهما "هيجل" في تفسير الاغتراب؛ وهما إما بوصفه اغتراباً للذات عن جوهرها، أي أن يصبح شيئاً ما غريباً جراء انفصاله عن الأصل الذي ينظر إليه بغرابة ونفور شديدين، وإما بمعنى اغترابه عن البنية الاجتماعية الثقافية التي يحيا فيها، أي اغتراب عن جوهره واغتراب عن عالمه، ولكنه بمعنى التنازل الواعي أو التسليم، بما يتماشى مع التأصيل للعقد الاجتماعي حيث يتنازل الفرد للمجتمع عن جزء من خصوصيته ومصالحه في سبيل البناء الاجتماعي، بما يتضمن تنازلاً واعياً أو تسليماً بقصد ضمان تحقيق غاية مرغوب فيها أي الوحدة مع البنية الكلية الاجتماعية.

وبذلك نجد أن الاغتراب عند "هيجل" عملية متوازنة، فهو إما قائم على خضوع الفرد ليستقر المجتمع ويسير، وإما قائم على انفصاله ليتغير المجتمع ويتجدد، فالإنسان مغترب بالضرورة عنده، إما عن ذاته أو مجتمعه، فهو يسير عبر

مدارج نموه من الاغتراب الاجتماعي إلى الاغتراب الذاتي. أما التغلب على حالة الاغتراب، حسب "هيجل"، فيتم بقيام مجتمع حقيقي تندمج فيه المصالح الخاصة والعامة، وينعّم الإنسان ضمنه بحريته الحقيقية، بما يتطلب، طبقاً لرؤيته، قيام دولة مركزية قوية كي يتمكن المجتمع من أن يتحكم بمصيره، بعيداً عن فوضى المصالح الخاصة المتناقضة.

وإذا كان "هيجل" قد استخدم الاغتراب بجانبيه الإيجابي والسلبي؛ إلا أن المرحلة التي تلته اتّسمت بالنظرة الأحادية السلبيّة للاغتراب، حيث تحول الاهتمام فيها نحو الجانب السلبي له فقط، وتعاملت معه بوصفه مرضاً ابتلي به الإنسان في المجتمع الصناعي الحديث، والرأسمالي خاصة، وهي المرحلة التي حمل لواءها عدد من الفلاسفة والمفكرين الذين اتخذوا من الاغتراب أداة لنقد المجتمع الحديث وما حل على الإنسان به من جراء تقسيم العمل والملكية الخاصة والبيروقراطية والتقنية التكنولوجية، فكانت لأعمالهم أثر مباشر في الأعمال التحليلية والمحاولات البحثية لقياس مظاهر الاغتراب وأنماطه.

سنحاول هنا توضيح المعنى السلبيّ للاغتراب الثقافي كما تناوله الفلاسفة؛ فقد كان الفيلسوف الاقتصادي وعالم الاجتماع الألماني "ماركس" من أبرز الفلاسفة الذين اهتموا بفكرة "الاستلاب" كإحدى أشكال الاغتراب، فتأثر مفهومه عنه بالفيلسوف "هيجل" والفيلسوف الألماني "لودفيغ فيورباخ" (١٨٠٤- ١٨٧٢م)، الذي شكل الاغتراب الديني محور فلسفته، متنقلاً من مفهوم فلسفي إلى مفهوم اجتماعي- اقتصادي، مرتبط بالواقع المادي للإنسان، باعتباره ظاهرة اجتماعية ومفهوماً علمانياً مادياً. وكلمة "الاستلاب" من حيث الأصل هي مقابل ترجمي للفظ الأجنبي (Alienation) الذي يرجع إلى اللفظ اللاتيني (Alienatio). وقد قدم ماركس طرحاً مغايراً للمفهوم بعيداً عن فلاسفة نظرية العقد الاجتماعي، الذين تحدثوا عنه في المجال السياسي، فاختزله في الوضع الاقتصادي، مبلوراً استعمالاً دلالياً جديداً للمفهوم كاستلاب اقتصادي، مؤسساً معناه على تحليل لبنية النظام الرأسمالي بناء على

مفهوم "فائض القيمة"، منتهياً إلى أن العامل يصنع الأشياء/ السلع، التي تصبح ذاتها أداة التحكم فيه واستعباده.

استخدم "ماركس" مفهوم الاغتراب في نظريّته الاجتماعيّة والاقتصاديّة بعد تحوير المعنى الأصلي له الذي وضعه "هيجل" في فلسفته المثاليّة، فاهتمّ بالعلاقات ما بين الأشياء، ليس كأمور ثابتة، بل متحولة تاريخياً، عبر اتباعه منهج الاقتصاد السياسي ليظهر أن "الاستلاب" حالة عامة في المجتمعات الرأسمالية التي حولت العامل إلى كائن عاجز وسلعة بعدما اكتسبت منتجاته قوة مستقلة عنه، ومعادية له، ورأى أن العامل في ظل النظام الرأسمالي "يهبط إلى مستوى السلعة ويصبح أكثر السلع تعاسة، وتزداد تعاسته بازدياد قوة انتاجه وحجمها، فيضحى العامل سلعة رخيصة بقدر ما ينتج من سلع وبتزايد قيمة عالم الأشياء تتدنى قيمة الإنسان نفسه"، وفق رأيه (Struik, 1964: 106-107).

وينشأ الاغتراب عند "ماركس" عن علاقة الإنسان بعمله وعملية تقسيم العمل في المجتمع الرأسمالي، فالإنسان في ظل الملكية الخاصة وتقسيم العمل يفقد نفسه

ككائن مبدع خلاق، وينفصل عن ذاته، كما يقف ناتج عمله كقوة مستقلة عنه متسيّدة عليه تواجهه وتعاديه، فيغترب الإنسان بذلك عن نفسه وعمله وناتجه وعن الآخرين والطبيعة كذلك، وهذا يعني أنّ ظروف العمل القاسية التي أوجدتها المجتمعات الرأسماليّة، ينتج عنها اغتراب العامل، وذلك من خلال حرمانه من الإمكانيّات والفرص الكافية في سبيل تحقيق الرفاهية الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي يسعى لتحقيقها، ويعتبر العامل شخصاً مغترباً عن وسائل الإنتاج طالما أنّه لا يستطيع الوصول إلى السعادة والقناعة في عمله؛ لأنّه لا يستطيع جني ثمرة جهوده وتعبه، فهو بهذا يحقّق معنى الاغتراب عن الطبيعة الحقيقيّة للإنسان على حدِّ تعبيره (بركات، ٢٠٠٦: ٤٠- ٤١).

والحل كما يرى "ماركس"، يكمن في إنهاء الملكية الخاصة والنظام الرأسمالي الذي يدعمها، أي عند قيام الطبقة العاملة بثورة "البروليتاريا" ضد الطبقة البرجوازية سبيلاً لتفكيك الرأسمالية وانتفاء النظام الطبقي والعُماليّ أيضاً، إذ لا يمكن للإنسان أن يحقق إنسانيته وفق "ماركس"

إلا بـالعودة إلـى ذاتـه مـن خـلال إشـباع حاجاتـه وتحقيـق ضروراته وتخليصه من الاستلاب.

تستطيع أن تخلـص مما سبق أن "مـاركس" لـم يعتقـد بأبديّة الاغتراب، بل ربطه بظروف اجتماعية تاريخيـة خاصـة حالما يتم تجاوزها بقيام نظام اجتماعي اقتصادي أفضل، فسيتم التخلص منه.

ويعتبر إسهام "ماركس" في الاغتراب علامة فارقة ونقطة تحـول كـبرى لنظريـة المعرفـة في القـرن العشـرين، لاسـيما المسـاهمة الماركسية الأساسية في تطوير مفهوم الاغـتراب الثقـافي، والتـي فتحـت البـاب واسـعًا أمـام العديـد مـن الاجتهادات والمدارس الفكرية، إذ أن "مـاركس" لـم يجد الاغتراب في العقل البشري كما فعل "هيجل"، ولا في الـدين كمـا ذهـب "فيورباخ"، بـل عثـر عليـه في العـالم المـادي، فالاغتراب لدى الماركسية الثقافية كان يعني فقدان الإنسان للسيطرة على عمله أو التحكم بعملية الإنتاج وظروفها، أما الاغتراب بين الأفراد الآخرين في المجتمع فرأى "مـاركس" أنـه نتيجـة التناقضـات التي تفرزهـا البنيـة الطبقيـة للمجتمـع،

وبالرغم من أن "ماركس" والفيلسوف والمفكر الاجتماعي الألماني "فريدريك إنجلز" (١٨٢٠ - ١٨٩٥م) الذي ساهم معه في وضع الأسس الفكرية للاشتراكية العلمية، لم يعالجا هذه الظواهر في عصرهما بالتفصيل، إلا أنهما أدركا بوضوح العلاقة بين الثقافة والأيديولوجية (البنية الفوقية) والقاعدة (البنية التحتية) للمجتمع، واعتقدا أن كلاً من الأيديولوجية والثقافة تتشكل وتكتمل صياغتهما في خدمة المصلحة المجتمعية، فكانت هذه ثانية المساهمات للماركسية الثقافية في مسألة الاغتراب.

فيما جاء مفهوم عالم الاجتماع الألماني "ماكس فيبر" (١٨٦٤ – ١٩٢٠م) للاغتراب على خلاف "ماركس"، حيث رأى أن العجز حالة عامة ولا تقتصر على العامل، بل تتصف بها جميع العلاقات الاجتماعية، فيؤكد أن العالِم والباحث والطبيب والأستاذ الجامعي وغيرهم لا يسيطرون على وسائلهم ومنتجاتهم بفعل كونها مستقلة عنهم في كثير من الأحيان، فالمواطن عاجز تجاه الدولة، حتى في المجتمعات الديمقراطية، فهي التي تسيطر عليه في واقع الأمر، ولا تشركه

في صنع القرارات المهمة، بما فيها تلك التي يكون لها تأثير كبير في تقرير مصيره. (بركات، ٢٠٠٦: ٤٢).

بينما ربط عالم الاجتماع الفرنسي "إميل دوركهايم" (١٨٥٨ – ١٩١٧م) الاغتراب بفكرة تفكك القيم والمعايير الاجتماعية والثقافية وفقدانها السيطرة على السلوك الإنساني وضبطه، وقد كان للأحداث التي حصلت في أوروبا آنذاك نتيجة الثورة الصناعية وما رافقها من ازدهار الروح الرأسمالية وإضعاف القيم والمعايير التقليدية وسلب الشعور بالمجتمع لضمان استمرار الفردية، تأثير كبير في مفهوم "دوركهايم"، الذي عبّر عنه بمصطلح (Anomie) أو اللامعيارية، في مؤلفاته، والذي يشير إلى حالة تدهور القيم والمعايير التي تضبط العلاقات الاجتماعية، فتنشأ عن ذلك أزمات حادة بين عدة فئات متنافسة أو متناحرة، ما يهدد الإحساس بأهمية التضحية في سبيل المجموع، إذ تستعمل الفئات القوية وسائل غير عادلة في فرض إرادتها على الفئات الضعيفة، ما يهدّد التماسك الاجتماعي بالوصول حتى إلى درجة التفسّخ والنزاع، فالاغتراب هنا شكل من أشكال انهيار العلاقات الاجتماعية

(بركات، ٢٠٠٦: ٤٤). بينما تكمن معالجة الاغتراب عند "دوركهايم" في دعم الوعي الاجتماعي للفرد بالقانون الموضوعي الذي يحكم سلوكه المجتمعي، فيتم نفي اغتراب الانفصال عن المجتمع لديه بالخضوع (شتا، ١٩٩٣: ٥٥)، كما نادى "هيجل" بذلك قبلاً.

ويعدّ عنصرا الفهم والمعرفة الأساس الجوهري لإدراك مفهوم الاغتراب عند عالم الاجتماع المجري "كارل مانهايم" (١٨٩٣ – ١٩٤٧م)، الذي استلّ فكرة "اللامعنى" لقياس أبعاد الاغتراب، بوصفه مؤسس علم اجتماع المعرفة، للإشارة إلى سلب المعرفة بالهدف النهائي للعمل في ظل العقلانية الوظيفية أو البيروقراطية التي تسيطر على المجتمع الصناعي، حيث يؤدي تقسيم العمل، في ظل الإنتاج الصناعي، إلى تقييد العامل بدور محدد في العملية الصناعية، مما يفقده الدراية بالهدف من العمل الذي يؤديه، ويقصر فهمه على الدور الجزئي الذي يقوم به في عملية الإنتاج، فيما يؤدي سلب الفهم لدى العامل بالهدف من العملية الإنتاجية، إلى سلب حريته في المبادأة والقدرة على اتخاذ القرار، بل وسلب حريته في التنفيذ، وهو ما يؤدي إلى

الاغتراب، (شتا، ١٩٩٣: ١٧٠، ١٧١)، الذي تأخذ الاستجابة إليه، عند "مانهايم"، أربعة أشكال تتمثل في؛ التسليم بالأمر الواقع، الانسحاب الاحتجاجي، الاندفاع الثوري نحو المقاومة ومحاولة تشكيل النظام الاجتماعي من جديد، المشاركة في التغيير أو السعي نحوه، حيث تحمل جُلها طابعًا مزدوجًا للشعور بالاغتراب، يتراوح بين الركون دون فعل، كالتسليم بالأمر الواقع والمسّايرة والانسحاب، أو النزوع إلى التمرد، كالرفض والسعي نحو التغيير.

بيد أن الفضل في شيوع مصطلح الاغتراب وتبسيطه كأداة لنقد وتحليل المجتمع ما بعد الرأسمالي يرجع إلى الفيلسوف ورائد التحليل النفسي الألماني "إريك فروم" (١٩٠٠– ١٩٨٠م)، ففسّره بأنه الحالة التي لا يشعر فيها الفرد بأنّه المالك الفعليّ لطاقته وثروته، بل يشعر بأنّه كائنٌ ضعيف يستند كيانه الوجودي على توفر قوى خارجيّة أخرى لا تمت بأيّ صلةٍ لذاته، منتجًا اغترابًا ذاتيًا يتكون حينما "يشعر الفرد بنفسه وكأنها غريبة عنه، فالشخص المغترب هو شخص بعيد عن الاتصال مع نفسه أو أي شخص آخر" (Fromm, 2001:

121)، يخلع قـواه الذاتيـة علـى أي شـيء خارجـه، وفي الغالـب يكون من صنعه، ثم ينظر إليه على أنـه "صـنم" (Idol) فيعبـده عله يعيد إليه بعضـاً من قواه المفقـودة. والاغـتراب بـذلك يعـد مرادفـاً عند "فروم" لكـل عبـادة تتسـم بالخضـوع والاستسـلام لشـيء خـارجي (Submissive Worship)، بمـا يجعلـه يتخلـل علاقة الإنسان بـأي شـيء، بعملـه، أو الأشـياء التـي يسـتهلكها، وبالحكومة أو الدولة التي تحكمه، وبنفسـه، طالمـا أن العلاقـة تتسـم بالخضـوع والاستسـلام (Submissive Relationship) (Fromm, 2001: 123). ولـذا نجـد أن الاغـتراب عنـد "فـروم" قد يأخذ أحـد أشـكال ثـلاث؛ تتمثـل في؛ الامتثـال أو الخضـوع للحشـد، الخضـوع السـادي، الخضـوع للسـلطات المجهولـة (حماد، ١٩٩٥: ٩٠)، وهو بذلك يرجع أسباب الاغتراب إلى جميع أشكال السيطرة والهيمنة في المجتمـع الحـديث، سـواء كانت سيطرة من الآلة والتكنولوجيا على الإنسان في المجتمـع الحـديث، أو هيمنـة القـيم والاتجاهـات والأيـديولوجيات التسـلطية، فحيـث تكـون التسـلطية وعشـق القـوة والحـض علـى العـدوان يكـون اغـتراب الإنسـان عـن وجـوده الإنسـاني

والـذي يتمثـل في جملـة مـن الأعـراض المصـاحبة مثـل العزلـة الاجتماعيـة، اللامعياريـة، العجـز، اللامعنـى، التمـرد (عيد، ١٩٩٠: ٤٥).

لقد تكررت المخاوف من التبعات السلبية للتكنولوجيا على ألسنة الفلاسفة، كما فعل "فروم"، (سنبحثها بالتفصيل لاحقًا) من دون إنكار أهميتها في التطور العلمي والحياتي، بوصفها كانت في البدء وسيلة للتحرر من ربقة الجهل، غير أنها باتت تدريجيًا شِركًا للإنسان وصارت مسيطرة عليه، فغيرت من طبيعة الأشياء إلى ما هو ضدها وظهرت علوم وصناعات جديدة تحرك التقنيات التي لم تعد تخضع لأي تحكم بها. ويرمي منظور هذا الاتجاه الفلسفي إلى التنبيه لتحديات تطور الآلة السريع وما تحمله التقنية من مخاطر الاغتراب، اليوم، على الأجيال الشابة والأطفال الذين يخضعون لوعي مغاير لفهمهم ولمنظومتهم القيمية المجتمعية، فظهرت، بحسبه، حاجات مصطنعة حلت محل السعادة الحقيقية، وبرزت الكثير من الظواهر المدمرة للروح البشرية، ونضبت المشاعر في القلوب لتحل محلها

بـرودة الآلـة التـي تحصـد الأعمـار والعقـول (دروا، ٢٠١٤: ١٣٦- ١٣٨).

ثالثاً: العوامل المؤدية للاغتراب الثقافي

سنحاول توضيح العوامل المؤدية للاغتراب الثقافي، من وحيّ النظريات الفلسفية المفُسّرة له، والدائرة حول مستويات:

أولاً: البنية النفسية الفردية القابلة للاغتراب، واضطراب شخصية الفرد نفسه بحيث تكون مُهيأة لحالة الانفصال عن الذات وعن الآخرين، إلى جانب مسوغات متعلقة بالنشأة الأسرية التي تعدّ من أبرز الجماعات الإنسانية وأكثرها تأثيراً في حياة الأفراد، فتقوم بدور أساسي في تنظيم سلوك الأفراد والمحافظة على هويتهم وثقافتهم، غير أن أي انتقاص من وظائفها الأساسية قد يؤثر على شخصية الأفراد وهويتهم وسلوكهم، ويظهر اغتراب الشباب على مستوى الأسرة والذات كتعبير عن أزمة الهُوّية، عند فشل الشاب في تحديد هوية "لأناه"، بمعنى شعوره بالقدرة على العمل كشخص منفرد في علاقة ديناميكية مع الآخرين، حيث يؤدي فشله في تحقيق هويته إلى شعوره بالاغتراب وعدم الجدوى من

التخطـيط للمسـتقبل وضـعف العلاقـات الاجتماعيـة واللامبالاة، والتي قد تغذيها أسباب أخرى كامنة في البطالـة والتبعيـة المسـتمرة للأسـرة ومحدوديـة الأمـل في المسـتقبل المهني وعدم تحقيق حاجاته وطموحاته.

ثانيـاً: الظـروف الاقتصـادية والاجتماعيـة، مثـل الفقـر والبطالـة والتمييـز وعـدم تكـافؤ الفـرص أو عدالـة التوزيـع، ووجود فجوة طبقيّة مجتمعية بيّنة تـؤدي إلـى انعـدام الشـعور بـالأمن والأمـان والاسـتقرار، وتخلخـل المنظومـة القيميـة في المجتمـع، وهـي ظـروف عامـة قـد تصـيب مختلـف الأفـراد والمجتمعـات بطبيعـة الحـال، غيـر أن المُغـترب يستسـهل مواجهتها بالانسحاب والعزلة وربما بـالرفض والتمـرد، ممـا يمسّ بمواطنته وبأمن مجتمعه وسلمه الأهلي.

ثالثـاً: المؤسسة التعليمية، المدرسة والجامعة، والتي إما تساعد في بناء شخصية الطلبة وتنمية قدراتهم والحفـاظ علـى هويتهم وثقافتهم؛ وإمـا أن تسـهم في ترسيخ ثقافة الاغـتراب عنـد الطلبـة، عنـد إقامـة الحـواجز بيـنهم وبـين المجتمـع المحلـي، واعتمـاد أسـلوب التلقـين في تقـديم المعـارف دون

إعمال العقل والفكر، وعدم فتح باب الحوار مع الطاقم التعليمي، فضلاً عن تراجع الاهتمام بالمواد الفكرية والثقافية التي تبني شخصية الإنسان وتعزز انتماءه لثقافة أمته. كما قد يشعر الشباب بأن ما يلقنوه من تعلم لا يؤهلهم لاكتساب خبرات تتناسب مع الحياة العملية، بل تقتل فيهم روح الابتكار والإيجابية، بما يشكل تحديات تواجه الشباب الجامعي تحديداً وتعترض مسيرة التكييف مع المجتمع، وتهيؤهم للاغتراب، وربما التأثر بقوى خارجة عنه، فينغمس بثقافة خارجية دونما وعي بثقافته الوطنية.

رابعًا: العوامل الثقافية، فالتحول من الثقافة التقليدية إلى الثقافة الجديدة جعل المجتمع يتعامل مع عادات وتقاليد وقيم وفنون وأساليب حياة مغايرة في الجانبين المادي وغير المادي للثقافة، مما قد يحدث شرخًا ثقافيًا يجعل الفرد يعيش حالة من الصراع بين الثقافة الوطنية، وبين الثقافة الوافدة، كما قد يحدث نتيجة عدم قدرة ثقافة ما من احتواء ما تأتي به الثورات العلمية والتكنولوجية، مما يؤثر سلبًا على بناء الشخصية الفردية ويؤدي إلى اغترابها، أو عند اصطدام

ثقافي بين فئة تتعلق بالثقافة التقليدية ولا ترى سواها، وتعتبر كل ما قدمه الأولون هو الصحيح فقط بدون إعطاء أي اعتبار لمعطيات الواقع الحديث، مقابل فئة انتقائية تعايش معطيات الواقع الغربي بدون دراية أو تمحيص، وفي كلا الحالتين لا بد من الشعور بالاغتراب الثقافي، فالأولى غارقة في الماضي والثانية غارقة في التبعية، حيث يصبح الفرد فيها إما خالياً من الأسس الأصيلة لثقافته العربية مقلداً عناصر متنافرة من ثقافات مختلفة، أو يملأ نفسه بثقافة مجتمعه، بحيث تسدّ دونه أبواب العصر، بوصفهما صوراً تُعبّر عن أفراد غير قادرين على الاندماج والتفاعل مع مجتمعاتهم.

رابعاً: أبعاد الاغتراب الثقافي ومظاهره

ذكرنا سابقًا أن الفيلسوف "هيجل" يعد، في المنظور الفلسفي، أول من استخدم مصطلح الاغتراب منهجيًا وبطريقة فنية نسقيّة متعمدة، وبناءً عليه؛ تم تقسيم تاريخ المفهوم فلسفيًّا إلى ثلاث مراحل أساسية: مرحلة ما قبل "هيجل"؛ والتي استخدم المصطلح فيها بمعانيه الثلاثة؛ القانوني، والنفسي – الاجتماعي، والديني، مع احتفاظه بمعنييه السلبي والإيجابي، حيث أن بُعد الإنسان لفترة محدودة عن الآخرين قد يتيح له الانشغال أكثر في عمله والإبداع فيه بدون أي مؤثرات خارجية قد تصرفه عن مشروعه أو عمله، ولكنه في المقابل قد يؤول سلبًا عند إدراكه بواسطة نظرية الأخلاق ونظرية الروح في الفلسفة الأفلاطونية، وذلك حينما يتحول الوعي المغترب إلى وعي غائب/ شقيّ لا يستطيع أن يتعرف على ذاته، فيتحول الجسد إلى مجرد سجن يعتقل الروح ويحرمها من المنطق العقلي،

وبلغة الفيلسوف "أفلاطون" انفصالها عن مثالها، أو حينما يتمثل وفق "روسو" في ضياع الإنسان بالمجتمع وانفصاله عن ذاته. والمرحلة الهيجلية؛ حيث تبلور مصطلح الاغتراب "كمصطلح فني" يطلق عن عمد وقصد على يد "هيجل"، الذي استخدم المصطلح بمعنيين: الإيجابي الدال على إبداع الروح، والسلبي الدال على انفصال الذات عن مخلوقاتها، حيث تفشل في التعرف على ذاتها فيما أنتجته. ومرحلة ما بعد "هيجل"؛ والتي انصرف التركيز فيها على المعنى السلبي للاغتراب، حيث أصبح ينظر إليه على أنه مرض أبتلي به الإنسان في العصر الحديث، وعليه أن يبرأ منه وإلا تهدد وجوده وحريته ومحيطه معاً. (رجب، ١٩٨٨: ١٠ – ٢١).

إذاً؛ ما هي المكونات الأساسية التي تتوفر لدى الفرد وتعكس حالة الاغتراب الثقافي عنده، وما هي المظاهر السلوكية الناجمة عنه والدالة على اغترابه الثقافي؟

يمكنك أن تجد تلك الأبعاد، أو كما يسميها البعض الأشكال أو الأنماط، وهي قد تتوفر جميعها أو بعضها بالشخص المغترب حسب شدة ومرحلة الاغتراب لديه، في الآتي:

العجز (Powerlessness)

يعد الشعور بالعجز أحد الأبعاد والمظاهر الأساسية للاغتراب الثقافي، ويقصد به بشكل عام الشعور بألّا حول ولا قوة، وبضعف الفرد وعجزه عن التصرف إزاء المواقف التي تواجهه في حياته، و"بعدم قدرته على السيطرة عليها، أو على حياته، وبعجزه عن السيطرة على تصرفاته ورغباته وافتقاره إلى الشعور بأنه قوة حاسمة ومقررة في حياته، وفقدان الشعور بتلقائية ومرح الحياة" (زهران، ٢٠٠٤: ١٠٩)، فهو كما يرى "فروم" حالة "اللاجدوى التي يحيا فيها الإنسان المعاصر، وتجعله يهرب من حريته التي منحها له العصر لما نتج عن شعور بالضعف والدونيّة، مما يدفعه للانتماء إلى كيانات أكبر منه تشعره بالأمن المفقود لديه" (Fromm, 2001: 40)، عند شعوره بفقدان القدرة على التحكم أو التأثير في مجريات الأمور الخاصة به، أو في تشكيل الأحداث العامة في مجتمعه، وبأنه مقهور مسلوب الإرادة ولا يقدر على الاختيار، ولا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية التي يواجهها، ويعجز عن أن يتخذ قراراته أو يقرر مصيره أو يؤثر في مجرى

الأحـداث، فإرادتـه ومصـيره لـيس بيديـه بـل تحـددهما قـوى خارجـة عـن إرادتـه الذاتيـة، وبالتـالي يشـعر المـرء بالإحبـاط والعجز عن تحقيق ذاته.

اللاهدف (Aimlessness)

يشير إلى شعور الفرد بعدم وجود هدف محدد للحياة، إزاء شعوره بالغربة والانفصال عن ذاته، وعدم قدرته على التواصـل مـع نفسـه وشـعوره بالانفصـال عمـا يرغـب في أن يكـون عليـه، حيـث تسـير حيـاة الفـرد بـلا هـدف ويحيـا مسـتجيبـاً لمـا تقدمـه الحياة دون تحقيق ما يريد من أهداف، وعدم القدرة على ايجاد الأنشـطة المكافـأة ذاتيـاً، وقـد يرجـع ذلـك إلـى غيـاب المعـايير والقيم الاجتماعية التـي يمكنهـا أن تُوجـه سـلوك الفـرد، وتعطـي معنى أو هدف للحياة، فيفقـد الفـرد بفقـدانها الأمـل في وجـود مـا يساعده على معرفة ذاته ويوجه سـلوكه، وعنـد شـعور الفـرد بـأن "الحياة تمضي بغير هدف واضح أو غاية لحياته وأنـه لـيس لديـه طموحات أو آمال مستقبلية، بل يعيش لحظته الحالية فقـط، فإنـه يفقـد الهـدف مـن وجـوده ومـن عملـه ومـن معنـى الاسـتمرار في

الحيـاة" (خليفـة، ٢٠٠٥: ٤٢)، بمـا ينـتج عـن ذلـك حالـة اضطراب في سلوك الفرد وأسلوب حياته، فيؤدي به إلى التخبّط في الحياة وضلّ الطريق (عيد، ١٩٩٠: ٢٢٧).

اللامعنى (Meaninglessness)

ويرتبط ذلك البعد ارتباطـًا وثيقـًا بنظيره "اللاهـدف"؛ عند شعور الفرد بعدم جدوى الحياة وانتفاء الغاية أو الهـدف الذي يحكمهـا، نظير شعوره بتعقد الحيـاة، وعصيانها على الفهم، حتى أنه لا يجد جدوى لاختياراته، ولا يدري إلى أي شيء تؤدي به هذه الاختيارات، كمـا لا يعـرف الهـدف الـذي يسعى لبلوغه من ورائها (خليفة، ٢٠٠٣: ٣٧).

وتـدور معظـم تعريفـات "اللامعنـى" في فلـك هـذين المعنيين؛ سواء من حيث شعور الفـرد بـلا معنـى أو لا هـدف ولا جدوى الحياة، أو شعوره بتعقدها وعدم فهمه لهـا وعـدم قدرته على التنبؤ بنتائج السلوك أو الاختيار مـن بيـن مـا يتـاح له، فهو يرى أن الحياة لا معنى لها، وأنها تسير وفق منطق غير معقول، كما لا يوجد شيء فيها، من وجهة نظر المغترب، لـه قيمة أو معنى، نظراً لخلوها من الأهداف والطموحـات، كمـا

أن الأحـداث والوقـائع المحيطـة بـه قـد فقـدت دلالتهـا ومعقوليتهـا، ومـن هنـا ينظـر الفـرد إلـى المسـتقبل باعتبـاره سلسلة مـن عـدم التأكـد أو عـدم اليقـين، واسـتحالة عمـل أي توقعـات أو تنبـؤات للأحـداث أو الأدوار التـي يؤديهـا في الحياة، ومن ثم يشعر بالتغرّب في حياته التي باتت لا جـدوى منها، فيفقد واقعيته، ويصبح أسيراً لمشاعر اللامبالاة والفراغ الوجودي (زهران، ٢٠٠٤: ١٠٩).

اللامعيارية (Normlessness)

وتمثـل "اللامعياريـة" فقـدان المعيـار، وعـدم وجـود نسـق منظم للمعايير أو القيم والضوابط الاجتماعية التـي تُمكـن الفـرد من اختيار الفعـل الأكثر اتفاقـاً مـع وضـع معين، أو التـي تُوجـه سـلوكه وتسـاعده في تحقيـق أهدافـه، نظيـر تضـارب تلـك القيـم وتناقضـها، ونتيجـة رفـض المغـترب للقيـم والمعـايير والقواعـد السـائدة في المجتمـع، عقـب انهيارهـا، بالنسـبة إليـه، وغيـاب منسـوب تأثيرهـا فيـه، وانتفـاء صـفتها كمنظومـة قيميـة منظمـة وموجهة للسلوك، وفقدانه الثقة في المجتمع ومؤسسـاته، فيشـعر الفرد حينها بـاختلال المعـايير الاجتماعيـة التـي أقرهـا المجتمـع

وارتضـى بهـا، مثـل العـادات والتقاليـد والأعـراف وأخلاقيـات التعامل التي تحكـم السلوك، بما يـؤدي إلـى حدوث نـوع مـن الانفصـال بـين أهـداف الفـراد وبـين قـيم المجتمـع ومعـاييره (خليفة، ٢٠٠٣: ٣٧- ٣٨)، فتختل علاقته بـالآخرين وتصبح سطحية يشوبها انعدام الثقة وعدم الاهتمام بمشاعرهم.

إن توقع الفـرد بأن السـلوكيات الاجتماعيـة غيـر مجديـة لتحقيـق أهدافـه، يـؤدي بـه لاتخـاذ مواقـف حياتيـة هامشـية، والسعي لبلـوغ هدفـه بغـض النظر عـن مشـروعية الوسـيلة أو انسـجامها مـع النسـق الاجتمـاعي الثقـافي، حيـث تـذوب هنـا القـيم والضــوابط الاجتماعيــة في خضــم رغباتــه الشخصــية الباحثة عن الإشباع بأية وسيلة، باعتبار أن الغاية تبرر الوسيلة بالنسبة إليه، فضلاً عن الانتماء إلـى منظومـة قيميـة خـارج مـا تعارف عليه المجتمع وما يحكمه من معايير أخلاقية.

التشيؤ (Reification)

كما أوضحنا سابقًا؛ يعني "التشيؤ" شعور الفرد بأنـه قـد فقـد هويتـه، وأنـه مجـرد شـيء أو موضـوع أو سـلعة، وأنـه لا

يملك مصيره، حيث يشعر أنه مقتلع الجذور، غير مرتبط بنفسه أو بواقعه.

العزلة الاجتماعية (Social Isolation)

ويدور المعنى حول شعور الفرد بالوحدة والفراغ النفسيّ، وافتقاد الاتصال بالآخرين من حوله، نظراً لعدم قدرته على التوافق معهم، فيؤثر البعد عنهم حتى وإن وُجد بينهم، بما يصاحبها من خوف وقلق وعدم ثقة بالآخرين، تنسحب بدورها على البيئة المحيطة به حينما يشعر بوجود فجوة بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه، نظير عدم إحساسه بالانتماء إليه أو التكيف معه، وغياب الروابط التي تجمعه معهم، فيلتزم العزلة، التي تتخذ نوعين؛ عزلة مفروضة على الفرد نتيجة فشله في إقامة علاقات اجتماعية مع الآخرين، وعزلة اختيارية يرتضيها الفرد ويصر عليها حين يشعر بعدم الالتقاء الفكري والثقافي والقيمّي مع المجتمع والأفراد من حوله (خليفة، ٢٠٠٣: ٣٩).

ويُعبر هذا البعد عن انسحاب الفرد وانفصاله عن المعايير الاجتماعية وثقافة مجتمعه السائدة، وما يترتب عليه من عدم

الرغبة في تحقيق التوافق الاجتماعي (Seeman, 1959: 783)، والابتعاد عن المشاركة في الأنشطة الاجتماعية، بحيث يكون الفرد في حالة تناقض بين ما هو مادي وما هو نفسي، فهو موجود في المجتمع من الناحية المادية، ولكنه منفصل عنه من الناحية النفسية، مما يجعله يشعر بالانفصال عن الآخرين والإحساس بعدم الانتماء واللامبالاة بطريقة يشعر فيها بأنه وحيد منفصل عن نفسه ومجتمعه (زهران، ٢٠٠٤: ٤٠٤).

غربة الذات (Self – estrangement)

هي حالة يدركها الفرد عن ذاته كمغترِّب، أي أنه أضحى نافراً أو مغترباً عن ذاته، وأصبحت الذات أداة مغتربة، لا تعرف ماذا تريد، فيفتقد القدرة على التواصل مع ذاته ومع الآخرين (زهران، ٢٠٠٤: ١٠٩). ويُعبّر الفرد عن ذلك بعدم الانتماء واللامبالاة وافتقاد الاكتراث بمجريات الأحداث الاجتماعية، والعزوف عن الأنشطة التي عادة ما تثير اهتمام الآخرين وتفاعلهم، وفقدان الدافع لتحقيق النجاح في الحياة إزاء محدودية الطموحات الشخصية، ورفض القيم السائدة، لاسيما الثقافية منها، والشعور بعدم الانتساب لمجتمعه والرضى عنه.

الرفض (Rejection)

هو اتجاه سلبيّ ومعادٍ نحو الآخرين، أو نبذ بعض السلوك، ويتضمن الرفض الاجتماعي، والتمرد على المجتمع، وعدم التقبّل الاجتماعي وحتى رفض الذات (زهران، ٢٠٠٤: ١١٠).

التمرد (Rebelliousness)

يظهر التمرد في شكل سلوك رافض يتسم بالعداء والازدراء والكراهية والشعور بالاستياء، والإحباط واليأس من كل ما تعارف عليه المجتمع من قيم ومعايير، عبر اللجوء للانسحاب من المجتمع والالتصاق بالذات والاحتماء فيها (Seeman, 1975: 78)، فهو شعور الفرد بالبعد عن الواقع ومحاولة الخروج عن المألوف وعدم الانصياع للعادات والتقاليد السائدة، والإحساس بالإحباط والسخط والرفض والعداء لكل ما يحيط به من قيم ومعايير، فقد يكون التمرد على النفس أو على المجتمع بما يحتويه من أنظمة ومؤسسات، أو حيال قضايا معينة (خليفة، ٢٠٠٣: ٤٢)، مما يدفعه إلى رفض القيم

الثقافية والوسائل المجتمعية المنتظمة والتعلق بأهداف ووسائل أخرى بديلة، والانضواء في جماعات فرعية لها ثقافتها الخاصة بها، وممارسة العنف والتطرف، في ظل وجود نزعة تدميرية تتجه إلى خارج الذات في شكل سلوك عدواني، وأخرى تتجه إلى داخل الذات في شكل عزلة ونكوص وعدوان موجه إلى الذات (زهران، ٢٠٠٤: ١١٠).

لعلك لاحظت مما سبق أن ثمة نتائج سلوكية تنجم عن الاغتراب الثقافي ومصحوبة بمشاعر الانفصال عن الذات والآخرين؛ ومنها الانسحاب واللامبالاة داخل المجتمع وفي نطاق العائلة، وفقدان الأمل والركون إلى العزلة والغرق في الأوهام والانغماس في نشاطات التسليّة التي تُنسّي المُغترب معاناته، وربما اللجوء بفعل اليأس والاحباط صوب استلال وسائل بديلة، بما يؤدي ذلك إلى إلحاق الضرر الفادح في نفس المُغترب ذاته، وبمجتمعه ووطنه ويمسّ بمواطنته وواجباته ومسؤولياته الوطنية عند اجتنابه المنظومة القيمية والثقافية المجتمعية وعدم التفاعل والاندماج والمشاركة في الشأن العام، وفي كل ما من شأنه أن يُطور بلده ويبنيه ويُعمّره،

وقد يؤول ذلك، في لحظة ما، بالمغترّب بفعل اليأس والاحباط إلى الرفض المقرون بالتمرّد، واستخدام العنف والتطرف والأعمال العدائية، والانضمام إلى حركات وتنظيمات متطرفة تشكل تهديداً للأنظمة والمجتمعات، في محاولة منه لتغيير الوضع القائم المنبوذ، وفق منظوره الاغترابيّ الخاص، بما يهدّد السلم والأمن المجتمعيّ.

خامساً: الاغتراب الثقافي وأزمة الهُويّة

أختي الشابة/ أخي الشاب،

نأمل منك أن تدرك، بعد السرد السابق، النتائج الوخيمة للاغتراب على الهوية، سواء أكانت الشخصية منها أم المجتمعية أم الثقافية التي تعد أساس تماسك المجتمع وتطوره.

سنحاول هنا التوضيح أكثر لأبعاد تأثير الاغتراب في الهوية، والذي أفردناه بمحور خاص لأهميته، ولكننا سنورد أولاً تعريفاً مبسطاً للهُويّة (Identity) التي تعني: نسق المعايير التي يُعرف بها الفرد ويُعرّف، وينسحب ذلك على هوية الجماعة أو المجتمع أو الثقافة، فهي حصيلة لمجموعة من أنساق العلاقات والدلالات التي يستقي منها الفرد خصائصه الأساسية ومعنى لقيمه، ويضع لنفسه في ضوئها نظاماً يشكل في إطاره هويته، بحيث تتوفر له من إجراء ذلك إمكانية تحديد ذاته داخل الوسط الاجتماعي الثقافي الذي يعيش فيه، باعتباره نظاماً مرجعياً على المستوى السلوكي (خليفة، ٢٠٠٣: ٦٠).

والهُويّة ليست كياناً ثابتاً ومطلقاً وإنما متغيرٌ لا يعطى دفعة واحدة إلى الأبد، فهي حقيقة تولد وتنمو وتتكون وتتغاير وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب، بوصفها عملية متعلمة من الواقع الثقافي والاجتماعي الذي يعيشه الفرد في مجتمعه، ومظهراً من مظاهر نمو الشخصية. ويوجد نوعان من الهوية بينهما درجة كبيرة من الارتباط هما: الهُوّية الشخصية (Personal Identity) والهُويّة الاجتماعية (Social Identity)، حيث تقوم الأولى على الخصال الفردية والوعي، بينما تقوم الثانية على الانتماء للجماعة.

وتتضمن الهُويّة الإنسانية، فردية كانت أو جماعية، عدة عناصر وهي؛ العناصر المادية والفيزيائية: وتشمل الحيازات، مثل الاسم والآلات والسكن والملابس، والقدرات الاقتصادية والعقلية، والتنظيمات المادية والسمات المورفولوجية، أي الشكل والبنية الخارجية. العناصر التاريخية: وتشمل الأصول التاريخية والأحداث والآثار التاريخية. العناصر الثقافية: وتتضمن النظام الثقافي، مثل العقائد والأديان والرموز الثقافية ونظام القيم وصور التعبير

الأدبي والفني. العناصر العقلية: مثل النظر إلى العالم والاتجاهات والمعايير الجمعية، والنظام المعرفي مثل السمات النفسية الخاصة واتجاهات نسق القيم. العناصر النفسية الاجتماعية: وتشمل الأسس الاجتماعية، مثل السن والجنس والمهنة والسلطة والدور الاجتماعي والانتماءات، والقدرات الخاصة بالمستقبل، مثل القدرة والامكانية والتكيف ونمط السلوك، وتعتبر هذه العناصر ضرورية لتكوين هوية الفرد أو الجماعة، فوجود هذه العناصر أو غيابها كلها أو بعضها شرط جوهري لوجود الفرد أو الجماعة.

ومن ذلك؛ هناك عدة شروط ذات صلة عميقة بالهوية وضرورية لقيامها، ومنها الشعور بوحدة الشخصية وتكاملها، والشعور بالوحدة والاستمرارية الزمنية، والشعور بالمشاركة العاطفية، والشعور بالثقة والاستقلال، والمراقبة الذاتية والاعتراف الاجتماعي.

يمكنك أن تستشف مما سبق علاقة الاغتراب الثقافي بالهُويّة؛ إذ يفقد الأشخاص أحياناً الإحساس بالهُويّة الشخصية، إما بسبب تشتتها عند فشل الالتزام بأيديولوجية

أو موقف ثابت من الحياة، أو لدى انغلاقها وقبول معتقدات الآخرين والانسياق لهم دون فحص أو تبصّر، مُعبّراً عن هوية غير ناضجة أو أقل نضجاً ترتبط بالتحكم الخارجي والاغتراب، مما قد يؤدي بها إما إلى مزيد من العزلة والانطواء أو إلى سلوك طرق عنيفة ضد المجتمع ومعاييره. وقد يشعر الفرد أحياناً بالانفراد واللامسئولية فيصبح أقل وعياً بقيم الجماعة، وذلك نظراً لفقدان المسئولية الشخصية لما تفعله الجماعة، حيث يكون أقل حرصاً على النتائج المترتبة على ما يقوم به من أفعال وتصرفات.

ومن الآثار السلبية المترتبة على فقدان الهُويّة الشخصية أو الثقافية ظهور العديد من السلوكيات غير المقبولة، مثل الانسحاب والبعد عن التعامل مع الجماعة، وعدم المشاركة في المسئولية الاجتماعية والتمركز حول الذات والانغلاق في دائرة الأهداف والمصالح الشخصية دون المصالح العامة، ورفض القوانين والمعايير الاجتماعية والثقافية، بينما تعبر حالات التمرد والعصيان والخروج عن الأعراف والقيم عن أساليب الرفض لثقافة المجتمع والشعور بالغربة والاغتراب،

ويتم ذلك عبر صور رفض الهوية الثقافية؛ من خلال إظهار سلوكيات غير مألوفة في ثقافة المجتمع، ورفض النظام القيمي للمجتمع وعدم القدرة على الاندماج في المجتمع.

وإذا كان الشعور بالهُويّة يعدّ أساس الشعور بالانتماء؛ فإن لفقدان الهُويّة أحياناً واضطرابها وأزمتها أحياناً أخرى أثرها الواضح والمباشر على شعور الفرد بالعزلة والاغتراب واليأس والتشاؤم، إذ ينطوي الشعور بالهُويّة الشخصية على الشعور بالاستقلال كوجه مقابل للشعور بالانتماء، فالإنسان لا يستطيع أن يؤكد هُويّته الفردية إلا إذا استطاع أن ينطلق من الشعور بالانتماء إلى جماعة يتجانس مع أفرادها، ومن الشعور بالاستقلال، وذلك بالقياس إلى الهيمنة الجمعية، أو الضمير الجمعي عند الفيلسوف "دوركهايم".

كما ارتبطت أزمة الهُويّة بالقلق وانخفاض تقدير الذات، ولذلك تعني فشل الفرد في تحديد هُويّته، مع الشعور بالاغتراب وغياب الهدف وعدم الجدوى من الحياة وافتقاد القدرة على التخطيط لأهداف مستقبلية والافتقار إلى العلاقات الاجتماعية وعدم القدرة على اختيار المستقبل

المهني واللامبالاة واللامعنى. ويعتبر الشباب الأكثر شعوراً بالأعراض الاكتئابية، وبالفشل والانسحاب الاجتماعي وعدم الرضا، فعلاقة الشباب غير المحددين لهُويّتهم بالواقع تنتظم على أرضية من الشك وعدم اليقين، لكونه من وجهة نظرهم مكاناً غير آمن وغير قادر على احتوائهم في تحقيق حاجاتهم والاستفادة من إمكانياتهم، بما لا بد من الانسحاب منه، وبالتالي الشعور بعدم القيمة وضياع الاعتبار، وسط شعور العجز عن مواجهة الواقع إزاء تغيرات متلاحقة تصيب الفرد بالارتباك عن الفعل الهادف المتسق (خليفة، ٢٠٠٣: ٦٤). فالمغترب يعاني القلق ويحاول تجنب الواقع والهروب منه مما يؤدي إلى ضمور القدرات والإمكانيات اللازمة لتحقيق التغيير إزاء حركة النمو غير المتناغم أو المتجانس في الحياة الاجتماعية ليكون الاغتراب.

ويعدّ العزلة والشعور بالاغتراب من العوامل الرئيسة المسئولة عن مدى تحقق الهُويّة أو طمس معالمها؛ فالإنسان لا يستطيع تحقيق هُويّته إلا في وسط اجتماعي يتحقق فيه التفاعل بين الذات وغيرها من الذوات، حيث لا يدرك هُويّته

إلا مـن خـلال المسـئولية التـي يشـعرها تجـاه الآخـرين، ولا ينمي هـذه الهُويّـة إلا بالإبـداع والمعرفـة والخـبرة مـن خـلال حياة اجتماعية نشيطة.

سادساً: الاغتراب الثقافي والعولمة

لعلك اختبرت العولمة من نتائجها التي أفرزت "فورة" معلوماتية وتكنولوجية فذّة سهّلت عليك، وآخرين، التشبيك العلائقي مع فضاءات الكون عبر شبكة الانترنت ووسائط التواصل الاجتماعي، أو ما يسمى بالإعلام الجديد، وهذا صحيح، ولكنه لا يعكس جُلّ الحقيقة، فكما أحدثت العولمة متغيرات متنوعة باتت جزءاً من النسق الدولي، فإنها أفرزت تحديات ما يزال الجدل الفكري الفلسفي محتدّماً بشأنها.

سنحاول أولاً تقديم تعريف مبسط للعولمة (Globalization) التي انتشر استخدام مصطلحها منذ أوائل التسعينيات في كتابات سياسية واقتصادية عديدة، بعد سقوط النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، وثورة الاتصالات وانفتاح العالم أمام الاقتصاد الحر دون قيود، وذلك قبل أن يكتسب المصطلح دلالات استراتيجية وسياسية وثقافية وفكرية مهمة من خلال تطورات واقعية عديدة في

العالم. فالعولمة كما يعرفها معجم وبستر "إكساب الشيء طابع العالمية، وخصوصاً جعل نطاق الشيء أو تطبيقه عالمياً"، كما تعني الزيادة المتنامية في وتيرة التداخل بين الموضوعات والمجتمعات البشرية في العالم، ويبدو هذا التداخل أكثر وضوحاً على صعيدي الاقتصاد والإعلام، ولكنه لا يقل عن ذلك شأناً في مجالات الثقافة والسياسة (خليفة، ٢٠٠٣: ٦٧). وإذا أردنا صياغة تعريف شامل للعولمة لا بد أن نضع في الاعتبار ثلاث عمليات تكشف عن جوهرها؛ الأولى تتعلق بانتشار المعلومات بحيث تصبح مشاعة لدى جميع الناس، والثانية تتعلق بتذويب الحدود بين الدول، والثالثة تخص زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات، حيث يتمثل جوهر عملية العولمة في سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع بين الدول على النطاق الكوني. وكل هذه العمليات قد تؤدي إلى نتائج سلبية بالنسبة إلى بعض المجتمعات وإلى نتائج إيجابية بالنسبة إلى بعضها الآخر، بينما قد يجمع تأثيرها بين الجانبين الإيجابي والتأثير السلبي معاً، وهو الأقرب إلى الصواب.

تتنوع الآراء حول الآثار الثقافية للعولمة، فمنها من يدعو لمقاومتها، نتيجة ما تحمله من أخطار نشر ثقافة واحدة وما تنطوي عليه من قيم ومفاهيم غربية مغايرة للخصوصية الثقافية، ولحماية الثقافة الوطنية والتراث وللقيم المجتمعية العربية، بما يهدد خصائص الأمم ومقوماتها وهوياتها، ويعزز اغتراب الشباب، وسط قلق من تأثرهم بسلوكيات بعيدة عن المنظومة الثقافية القيمية والمجتمعية العربية، مثل ارتداء الأزياء الأجنبية والتشبه بآراء الغرب وثقافتهم وتصرفاتهم الاستهلاكية، رغم أنهم باتوا قادرين على التعامل مع التقنية التكنولوجية، من دون التجاوز عما أدت إليه التحولات الوازنة في ميادين الحياة الثقافية والتكنولوجية والعلمية إلى تغيرات عميقة في ذهن الإنسان وبنيته النفسية ونظرته للوجود، ففي ظل التغير المستمر في الحياة الاجتماعية والتطور المتسارع لأحداثها ووقائعها ووسائلها وسبل المعيشة، وبما تحمله من جديد يحتم على الإنسان التعامل معه بشكل ما لم يألفه بعد، وحتى تقع الألفة ويحدث ما نسميه بالتوافق، يجد الإنسان نفسه يعيش مشاعر اليأس وفقدان البوصلة وغياب معاني وجوده وأهدافه، كما

يعايش مشكلة في إحساسه بالانتماء إلى عالم مليء بما هو غير مألوف بالنسبة إليه، مما يؤثر فيه كعنصر اجتماعي.

وإذا ما عايش الإنسان تلك الحالة في أي مجال من مجالات حياته، وفق هذا المنظور، فقد أنقصت من تقديره لذاته، وأثّرت سلباً في دافعيته للإنجاز، وأفقدته الإحساس بالاتزان، مما يؤدي به إلى انخفاض قدرته على الأداء، ويشعره بأن المسافة بينه وبين غيره قد تباعدت، ويصبح ما يربطه بالآخرين يتحدد بالمنفعة والمصالح الخاصة، وسط ضعف التمسك بالمبادئ والقيم الإنسانية السامية، التي باتت تنتمي إلى الماضي البعيد، فيصبح منفصلاً عن المجتمع والدولة وعاجزاً عن تحقيق ذاته على نحو حقيقي.

في المقابل، ثمة آراء تعتقد بأن المسألة لا تتعلق بقبول العولمة أو رفضها وإنما في كيفية التعامل معها واستيعابها، من خلال تعزيز الوعي بمعناها وجوهرها والتعامل الواعي معها بما يمكن الحفاظ على الذات دون الغرق في المتغيرات أو العزلة عنها، وهنا تكون الذات مشاركة مع ذوات أخرى في بناء الثقافة العالمية المشتركة، حيث تبحث العولمة عن نقاط

الاتفاق بين الهويات الثقافية المتعددة ليزداد التفاهم والفهم المشترك وعدم الإقصاء، مع أهمية وضع سياسات ثقافية شاملة توازي سياسات التنمية وتحتويها ودعم الفكر الحر الملتزم بتلك القيم الروحية لتنميتها وتطويرها، لاسيما بين الفئة الشابة الأكثر تأثراً بها.

وبعيداً عن الجدل المستمر حول قبول ظاهرة العولمة أم رفضها؛ فإن تفكيك البنية التحتيّة للعولمة ليس أمراً سهلاً ولا متاحًا آنيًا؛ إزاء عمق الاتجاه الأعظم نحو الترابط الاقتصاديّ والتقنيّ في بنية النظام الدولي المعاصر، والذي تُعلي العولمة من شأنه بعدما أنتجت "مجتمعًا شبكيًا" يتّسم بالاعتماد المتبادل والمصالح المشتركة بين الدول، لاسيما في الأبعاد الاقتصادية والمالية والنقدية التي تعدّ أهم ركائزها، وشركات متعددة الجنسيات ومتخطيّة القوميات، و"فورة" معلوماتية وتكنولوجية، وبما ينبثق عنها مجتمعة من مؤشرات أخرى تتمثل في اتّساع نطاق التجارة الدولية، وتنامي حجم الاستثمارات الخارجية، والعمالة الأجنبية، والطلبة الدارسين خارج بلادهم، وشبكة المنظمات الدولية غير الحكومية، في

ظل انتفاء ما يشير إلى تآكلها أو تخلي البشرية عنها، بما يجعل مسار العولمة ماضياً دونما توقف بدون نفي احتمال تعرض بعض جوانبه إلى تغيير بإيجاد أبعاد جديدة.

سابعاً: الاغتراب الثقافي والتكنولوجيا

سنحاول هنا توضيح المنظور الفلسفي لتأثير التدفق المعلوماتي والمعرفي والتطور التكنولوجي، في إطار الثورات العلمية الهائلة في مختلف المجالات مثل ثورة الميديا وثورة الاتصال والثورة الرقمية وثورة المعرفة، في تعزيز الاغتراب الثقافي، لاسيما عند الفئة الشابة الأكثر استخداماً لها وتأثراً بها.

فقد انشغل تيار فلسفيّ معتبر بمقاربة تأثير التكنولوجيا في تنمية الاغتراب الثقافي، أو كما ذهب الفيلسوف "فروم" إلى تسميتها "باغتراب التكنولوجيا" في إطار تحليله لظاهرة انتشار الوسائل التكنولوجية الحديثة ودورها في تعزيز الاغتراب، فالإنسان، بحسبه، في ظل بحثه المتواتر عن الحقيقة العلمية قد نظم من المعارف ما كان بوسعه استخدامها من أجل السيطرة على الطبيعة، وقد حصل على نجاحات هائلة، لكنه بإصراره على التقنية والقيم المادية فقد ليس فقط الإيمان الديني والقيم الإنسانية، بل والقدرة كذلك على الإحساس بالانفعالات

العميقـة وبـالفرح والحـزن اللـذين يرافقانهمـا، فاعتمـد علـى الاستهلاك المادي وفقد الاحتكاك بنفسه وبالحياة وأصبحت الآلة التي بناها من القوة مُحرك برنامجه ومُحدد مساره. ويعتبر "فروم" أن الإنسان يبدع أوثانـًا يعبدها، وهنا يكمن جوهر الاغتراب عنده، فعملية الاغتراب تتم لديه عندما يستسلم الإنسان لما صنع، حيث هناك الكثير من الأشياء المرتبطة بحياة الإنسان المعاصر يمكن أن تكون أصنامـًا، كما يراها "فروم"، غير أن التكنولوجيا باتت الصنم الجديد الذي أصبح الإنسان المعاصر مرتبطـًا به، فالعصر الحالي قد طور دينـًا جديداً سماه "فروم" بـ"دين التقنية"، وفق تعبيره (الزهرة، ٢٠١٦: ٩).

وقد عبّر الفلاسفة عن تلك المخاوف بمناحي مختلفة ولكنها متقاطعة؛ فبالرغم من انجازات التقدم التكنولوجي والعلمي الوازنة في المجالات الحياتية المتنوعة، إلا أنه أخضع الإنسان لسيطرته فأضحى معه مجرد آلة يخضع لقوانين ما صنعه بنفسه من تقدم، كما ذهب إلى ذلك الفيلسوف الماركسيّ المجريّ "جورج لوكاش" (١٨٨٥- ١٩٧١م) في مفهومه عن "التشيؤ"، والذي يعني أن المجتمع يجب عليه أن

يشبع حاجاته عن طريق تبادل السلع، وهذا يتطلب أن يتم تنظيم المجتمع كله وفق نموذج علاقاته الاقتصادية، وبالتالي تعمّ ظاهرة "التشيؤ"، ويحدث اغتراب الإنسان، في ظل تلك العلاقات المتداخلة حيث لم تعد السلع تقاس بقيمتها الواقعية، وإنما تتحدد بقيمة مجردة يحددها السوق، فيما تحول الإنسان إلى مجرد أشياء، تُقاس قيمته بما ينتجه من سلع، فيشعر بالاغتراب وفقدان الذات في ظل تلك الظاهرة (Lukacs, 1971: 112. 172).

وقد دار الفيلسوف "ماركس" حول الفكرة نفسها في مفهومه عن السلع، حيث أن صنمية السلع هي التي تسود في المجتمعات الصناعية المتقدمة، وتحدد العلاقات الاجتماعية، وتسبّغها بطابع سلعي محدد، فتصبح قيمة الإنسان تقاس بما ينتجه من سلع، وبالتالي يتحول إلى سلعة تباع وتشترى. ويرى "ماركس" أن الناس في ظل حالة الاغتراب هذه يصبحون مجرد دُمى للنظم الاجتماعية والتكنولوجية التي صنعوها بأيديهم.

فيما انطلق الفيلسوف والمفكر الألماني "هربرت ماركيوز" (١٨٩٨- ١٩٧٩م) من الفكرة نفسها في مفهومه عن الإنسان ذي البعد الواحد، والتي من خلالها تحول الإنسان في ظل التقدم التكنولوجي إلى بعد واحد يمثل البعد التقني لسلطة الآلة، والذي يعتمد على ما يتم إحرازه من سلع وإنتاج، مما ترتب عليه اغترابه عن ذاته، وأصبحت العلاقات الاجتماعية ترتبط بقوانين الإنتاج، ومن هنا حدث تشويه لقيم الإنسان، وجوهره الحقيقي. وفي نفس الإطار؛ صاغّ الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني "ماكس هوركهايمر" (١٨٩٥- ١٩٧٣م) مفهوم "خسوف العقل" للحديث عن نهاية الفرد، فرأى أن الإنسان في ظل المجتمعات الصناعية يعاني من أزمة عميقة تتمثل في اضمحلال أهميته، واغترابه عن ذاته بسبب سيطرة الآلة على مجالات الحياة، مما يقضي على شعوره بذاته، ويشعره بالضياع، حينما بات كالمادة، ويخضع لقوانينها، وذلك أسوة برؤية نظيره الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني المعاصر "يورغن هابرماس" (١٩٢٩م) الذي ركز على ظاهرة الهيمنة التكنولوجية "التقنية" والعقل "الأداتي"،

ورأى أنه بقدر تغلغل التقنية في مجالات الحياة الاجتماعية، وما يترتب على ذلك من تغيير في المؤسسات الاجتماعية ذاتها، بقدر ما تتقوّض الشرعية القديمة لتحل محلها شرعية جديدة، منتقداً التقدم التكنولوجي في المجتمعات الصناعية نظير تغلغل التقنية في جميع مجالات الحياة، مما حوّل الإنسان إلى أداة ووسيلة للإنتاج مثله مثل الآلة، بحيث باتت قيمته تقاس بما ينتجه، فبات الإنسان المعاصر يشعر باغتراب، وضاعت منه قيمته الحقيقية، وأضحى مجرد سلعة، وفقد هُويّته وإحساسه بالقيم المجتمعية.

وقد استند "هابرماس" إلى فكرة سيطرة وهيمنة التقنية على عالم الحياة في نقد فكرة العقل الأداتي، بوصفه منطقاً في التفكير وأسلوباً في رؤية العالم، وهو الأسلوب الذي يحكم العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، ويسيطر على التفكير في المجتمع الصناعي المتقدم، وفيه يخضع الإنسان للتكنولوجيا خضوعاً تاماً، على حساب التواصل في المجال الاجتماعي(Habermas,1992: 23-25)، فأصبح الإنسان يشعر في ظل هذا التقدم التكنولوجي بالاغتراب، وليس معنى

رفض "هابرماس" للتكنولوجيا أنه يستبعدها تماماً من الحياة، بل يريد أن تعمل إلى جانب شعور الإنسان بذاته، وأن يكبح التغلغل التكنولوجي في مجالات الحياة.

من هنا فإن التكنولوجيا والتقدم العلمي، في منظور هذا التيار الفلسفيّ، قد دخلا في كل مجالات الحياة الاجتماعية، حتى الحياة الثقافية، مما جعل الإنسان يشعر بالاغتراب.

سنحاول هنا توضيح مواطن تأثير التكنولوجيا في تعزيز الاغتراب الثقافي؛ ونخص بالذكر شبكة الانترنت التي يطرح محتواها ومواقعها مدّيات واسعة من الاستخدام المُتنوع التي لتشمل عموماً، الاستخدامات الاجتماعية والاتصالية عبره، مثل البريد الالكتروني وغرف المحادثة والمدونات، وغيرها، والاستخدامات المعلوماتية وغير الاجتماعية، والتي تشمل البحث عن المعلومات ومتابعة الأخبار وتحميل البرامج والصور والألعاب وغيرها، في ظل ما بات يُعرف "بالسوشيال ميديا" (Social Media) وهي البرامج أو المواقع التي تستخدم عبر شبكة الإنترنت من خلال أجهزة الكمبيوتر أو الهواتف الذكية للتواصل بين المستخدمين

وتبادل الأفكار والمعلومات، والوصول للمستندات والصور ومقاطع الفيديو، لاسيما عبر مواقع الشبكات الاجتماعية، مثل الفيسبوك وتوتير، والمدونات، والتي تتيح مجتمعة "نمذجة" مجتمعات افتراضية وفق أساس غير جغرافي يلتقي من خلالها الأفراد ضمن الشبكة العنكبوتية، إما عبر الهويات الحقيقية أو الجديدة التي يتم تشكلها لتتناسب مع أغراض استخدام الإنترنت، أو المُزيفة عبر انتحال هويات مغايرة للتعبير عنهم والاتصال من خلالها.

وقد يستخدم الشباب مواقع الإنترنت بحثاً عن معلومات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية، تساعدهم في تفعيل مشاركتهم الاجتماعية، والتعبير عن آرائهم وأنفسهم، مما قد يسهم في زيادة الوعي لديهم وتنميّة دافعيتهم للمشاركة بشكل عام، كما قد يحمل المحتوى المعلوماتي طابع التسلية، من ألعاب وتحميل الصور والأغاني، أكثر مما يحمل الطابع النفعي.

بيدّ أن ثمة وجهاً قاتماً يقف وراء الاستخدام المُطوّل للإنترنت و"السوشيال ميديا"؛ حيث يعيش الشباب لعدة ساعات يومياً مع واقع افتراضي، وعوالم ثقافية بعيدة عن

ثقافاتهم، بما يصاحب ذلك من سلوك يتمثل في قلة النشاط البدني والاجتماعي، والانطوائية والغربة الاجتماعية والثقافية، وغياب التفاعل والمشاركة والاهتمام بالشأن العام، وتعزيز الاستلاب الثقافي، مما قد يقود على المدى البعيد إلى التدمير الثقافي للأجيال الصاعدة.

وقد تناولت دراسات بحثية العلاقة بين الإنترنت والاغتراب، فربطت طبيعة استخدام الانترنت، من حيث الاستخدام الكثيف له لأوقات طويلة وما يتبعه من اقتطاع أوقات كان يقضيها الشباب في اتصال اجتماعي مع أسرهم وأقاربهم وأصدقائهم، مع متغيرات الاستخدام، مثل الاستخدام الفردي للإنترنت والإدمان عليه وطول الخبرة والاستخدام المنزلي أو المسائي له، بالشعور بالعزلة والغربة والانفصال الاجتماعي والثقافي.

كما أن مواقع الإنترنت وصفحات المدونات وغرف المحادثة وغيرها من الوسائل الحوارية، قد تشكل حاضنة خصبة لتعزيز إشكالية المغترب وتعميق أزمته، وليس حلها، سواء عبّر عنها بالانسحاب أو السخط والرفض والتمرد،

وذلك بالإسهام في تذكيتها والدفع تجاه أحد أوجه المظاهر السلوكية الاغترابية، لاسيما إذا وجدت قضيته أصداءً واسعة وسط نشطاء الانترنت و"السوشيال ميديا"، أو كانت محل جدل ونقاش، أو قضية مشتركة.

فيما تشكل النفسيّة المُغتربة التي تجد في الشبكة الافتراضية مُعيناً لغربتها، صيداً مُغرياً وسهلاً للحركات والتنظيمات المتطرفة، التي تنشط عبر "السوشيال ميديا" لنشر أفكارها وتجنيد الشباب واستقطابهم، لاسيما أولئك المنفصمين عن واقعهم الاجتماعي ومجالهم العام والمفتقدين للهدف والرؤية، والذين ينجذبون بسهولة للخطابات البلاغية التي تقدمها تلك الحركات والمليئة بأحلام التغيير المنشود والحلول الجاهزة للتحديات المجتمعيّة، وقد يمضي وقتاً طويلاً حتى يدركوا مدى سذاجته وبعده عن الحقيقة، بل وتطرفه.

وبالتالي، تكون الوسائل التكنولوجية هنا ليست بيئة مُعزّزة للاغتراب فقط، وإنما وسيلة مساعدة للتطرف أيضاً.

ثامناً: الاغتراب الثقافي والتطرف

أختي الشابة/ أخي الشاب

سنحاول توضيح علاقة الاغتراب الثقافي بالتطرف؛ إن الفكر المتطرف يعدّ صنواناً للاغتراب، إذ ينشط التطرف بين ثنايا شعور الشباب بالعزلة والعجز وغياب الهدف والمعنى والفراغ الفكري، ورفض الواقع، وعدم الانصياع للسائد من قيم ومعايير، والإحساس بالإحباط والسخط والكراهية لكل ما يحيط به، مصحوباً برغبة جامحة في هدم أو تدمير أو إزالة كل ما هو قائم، مما يدفعهم إلى رفض القيم الثقافية والوسائل المجتمعية المنتظمة والتعلق بأهداف ووسائل أخرى بديلة، والمشاركة في جماعات فرعية لها ثقافتها الخاصة بها والانصياع لها، وممارسة العنف والتطرف، في ظل وجود نزعة تدميرية تتجه إلى خارج الذات في شكل سلوك عدواني، وأخرى تتجه إلى داخل الذات في شكل عزلة ونكوص وعدوان موجه إلى الذات.

وتتلاقى الظروف التكوينية للفكر المتطرف مع حالة المغترِب، في صور رفض الواقع ومحاولة تغييره باستخدام العنف والقوة، فكما أن المتطرف قد ينتقل من خانة الأفكار، بدون مبارحتها، إلى شق السلوك الظاهري بالعمل العنيف الإرهابي، فإن المُغترب أيضاً قد تتخذ استجابته للاغتراب جانب التمرد والرفض باستلال القوة والعنف سبيلاً للتغيير المنشود من جانبه، فضلاً عما يجمعهما من سمات التعصّب واليأس والإحباط والانفصال عن المحيط المجتمعي وعدم القدرة على التفاهم أو التسامح مع الآخرين وضعف الانتماء للوطن، مع اتخاذ جماعات وتنظيمات دينية أو سياسية فرعية بديلاً عنه، حتى تحقق أهدافهم ويكون لهم فيها دور، يفتقدونه في الحياة الاجتماعية (بيومي، ١٩٩٢: ٨).

يمكنك أن تجد أيضاً علاقة وثيقة بين الاغتراب والعنف، فالاغتراب ليس نتيجة فحسب، بل هو نتيجة وسبب في آن واحد، ذلك لأن ممارسة القمع والإرهاب ظاهرة اغترابية في حد ذاتها، وعلى هذه الصورة يكمن الاغتراب في أصل العنف، مثلما يكمن العنف في أصل الاغتراب، حيث تتداخل الظاهرتان

في كينونة واحدة يتعانق فيها السبب بالنتيجة والشكل بالمضمون، ويبنى على ذلك أن تكون الشخصية الاغترابية شخصية قمعيّة، بينما الشخصية القمعية هي شخصية اغترابية أيضاً (وطفة، ١٩٩٨: ٢٤١، ٢٨٠)، إذ يرتبط الاغتراب ايجاباً بالعديد من الاضطرابات والسلوكيات غير السويّة، مثل العنف والإدمان والانتحار. وقد يكون العنف محاولة للتغلب على الاغتراب، كما أن مشاعر الخضوع والاستسلام، التي قد يشعر بها المُغترب، قد تقوده في لحظة ما للانفجار والتمرد، بعد مشاعر التبلد واللامبالاة التي وسمته طويلاً، والتي قد تشكل ميكانيزم بالنسبة إليه للهروب من الضعف والاغتراب، غير أنها تبقى مشاعر مكبوتة قد تنفجر تحت وطأة المزيد من الضغوط والاحباط في صورة تمرد عنيف على الواقع.

وقد يؤدي ذلك، بدوره للإرهاب، إذ لا يمكن تصور الإرهاب بدون استخدام العنف أو التهديد به، لبث الرعب والخوف والذعر في نفوس المواطنين لتحقيق أهداف سياسية معينة، حيث يجد تعبيراً له من خلال سلوك عدواني، كما أن أزمة الهوية لدى الإنسان، عندما يعاني من الحيرة وعدم

الوضوح والتصدع والتناقض، قد تؤدي به إلى التوحد مع جماعة أو تنظيم ما بدون مقدمات، عبر الانضمام إلى الجماعات الإرهابية أو الحركات الدينية المتطرفة، سعياً نحو تحقيق هوية اجتماعية كان الفرد يفتقدها، ولإيجاد نماذج للسلطة كان يبحث عنها، وتجعله يشعر بالقوة والسيطرة والانتماء، كما أن فقدان الثقة وعدم الشعور بالأمن النفسي الاجتماعي، نتيجة اغترابه الذي اختاره طواعية، فضلاً عن انخفاض القدرة على ضبط النفس، ووجود عقائد تحمل طابعاً تدميرياً، تقود إلى العنف والإرهاب.

وبالإضافة إلى ما سبق؛ فإن هناك ارتباطاً بين الاغتراب والإرهاب عند التعرف على الخصائص المميزة للإرهابيين والمماثلة في كثير منها للمغتربين؛ مثل التناقض الوجداني والفكري تجاه السلطة، العدوانية وفقدان التوازن، عدم وضوح الرؤية وعدم القدرة على الاستبصار، الانفصال العاطفي، اضطراب الهوية، الاتجاه إلى تدمير الذات خارجياً وداخلياً، الانتماء إلى مجموعات تؤمن بقيم العنف والعدوان (خليفة، ٢٠٠٣: ١٥٦).

وعندما يقترن شعور الإحباط بمشاعر تقدير الذات والمفهوم الإيجابي لدى الشخص عن نفسه، تنمو لديه مشاعر العدوان ضد "الآخر" الذي لا يقف منه موقف العداء فقط، بل موقف الرفض والإنكار، والذي قد يتطور إلى مستوى القتل والإرهاب عند توفر عنصرين هما؛ وجود أيديولوجية ترفض مشروعية وجود "الآخر"، وتصوير "الأنا" الأعلى لديه لعدوانية "الآخر" وخطره من أجل تبرير الإرهاب باعتباره كفاحاً أخلاقياً لسيادة صورة مثالية يسعى إليها الإرهابي. ويعد العدوان استجابة للإحباط، الذي يؤدي إلى ظهور مشاعر وسلوك الانسحاب، والتي تتجسد في صور عدم المبالاة والسخرية من النفس والعجز العقلي والمادي في قدرات الشخص وإمكاناته والرضا بالكفاف أو ما أقل منه، حيث يُحمل الفرد هنا الآخرين مسؤولية ما وصل إليه، فتنمو لديه مشاعر الاغتراب، وتتكامل عند مسوغات مواجهتهم بعدوانه (خليفة، ٢٠٠٣: ١٥٧)، إذ بقدر شدة الإحباط تكون شدة العدوان الذي قد يصبح إرهاباً.

الفصل الثالث

دور الفلسفة في معالجة الاغتراب الثقافي

أختي الشابة/ أخي الشاب،

يمكنك أن تستشف مما سبق الموقف الفلسفي المناهض للاغتراب الثقافي، نظير نتائجه الوخيمة التي تلحق الضرر ليس بالمغترب نفسه فقط وإنما بمجتمعه ووطنه، بما يمسّ بمواطنته الفاعلة ويهدد أواصر النسيج المجتمعيّ والسلم الأهلي عندما يؤول بؤرة متمردة تتخذ من العنف والقوة سبيلاً لما يعتقده التغيير المنشود.

وكما تصدّت الفلسفة للتطرف، فإنها استلّت أيضاً أدواتها وطرائقها المنهجيّة والعملية المضادّة للاغتراب الثقافي، بوصفهما مسارين متقاطعين قد يؤدي أحدهما للآخر، وذلك في إطار الدور الفلسفي المهم في حل المشكلات المعاصرة، إذ أن منهج الفلسفة التأملي العقلي النقدي لا يمكنه أن يجعل الفيلسوف صاحب العقل المُتّقد والمستنير يقف مكتوف الأيدي إزاء مشكلات مجتمعه، بخاصة تلك التي تتعلق بالصالح العام، فالفلاسفة يسعون دائماً لإصلاح حال

مجتمعاتهم بهدف تحقيق السلام الداخلي والخارجي، من أجل العيش في عالم مفعم بالمحبة والتسامح والعدل والرخاء، والإعلاء من كرامة الإنسان بوصفه إنسانًا أولاً وقبل كل شيء، فتاريخ الفكر الفلسفي زاخر بفلاسفة دعاة حلول لأزمات مجتمعاتهم ومشكلاتها، عبر التأسيس لفعل العقل وقوة الفعل من خلال الفكر، واستخدام المنهج التأملي العقلاني الشمولي النقدي التساؤلي، ومحاولة تشخيص الأزمة وتقديم الحلول الكفيلة بمعالجتها، بإعمال المعرفة والفكر معًا، وبناء الآراء على المعلومات، والسؤال، والنظرة الواقعية الاستشرافية لمستقبل الأزمة وتبعاتها.

وكما أوضحنا سابقًا؛ فقد انشغل الفلاسفة بمناقشة مشكلة الاغتراب الثقافي فلسفيًا ومحاولة فهم أسبابها وتحليلها بغية مواجهتها، وذلك عبر نشر القيم الفلسفية المتشبعة بمبادئ أخلاقية كونية إنسانية سامية، وإعلاء قيمة الفكر النقدي التي تعد من أبرز ثمراته التسامح والاختلاف واحترام تباين الآراء والأفكار والمعتقدات وقبول "الآخر" المختلف، دينيًا وثقافيًا وسياسيًا، والدعوة إلى المساءلة والبحث عن المعنى وإعمال

العقل الإنساني وتحريره من القيود والكوابح التي تكبل مناشط الإنسان، وتمنعه من حرية البحث والتصور والإبداع، وتغرقه في أتون مشاعر فقدان الثقة والمعنى والعجز وعدم تقدير الذات والإحباط واليأس والعزلة، باعتبارها وصفَة جاهزة للاغتراب، والتي تؤدي في مجملها إلى الدخول في دائرة العدوانية والعنف والتطرف، والتي تنبذها الفلسفة وتتصدى لها.

وتنهل الفلسفة من منظومتها القيميّة الأخلاقية، الرّاسخة في فرعها الأخلاقي، منهجاً حياتياً للطريقة التي يمكن للفرد من خلالها أن يعيش حياة خيّرة، يعرف فيها الخير والشر والصواب من الخطأ والسلوك الجيد من السيء، ويقدّر قيمة نفسه وحياته ومعنى وجوده، وتُعزز لديه قيم مواطنته الفاعلة، بالمشاركة والتفاعل والعطاء والانتماء ضمن بيئته المجتمعيّة، فالأخلاق، كما ذكرنا سابقاً، منظومة متكاملة من القيم والمبادئ والمعايير السلوكية التي تؤثر في حياة الفرد وتُوجّه مسلكه وتُنظم طريقة اتخاذ قراره نحو القيام بما هو محمود والابتعاد عما هو مذموم في مختلف المواقف الحياتية والإنسانية، بوصفها منهجاً وجدانياً ينير طريق الفرد إلى

صراط الحق والخير والفضيلة وينهض به إلى أرقى المستويات الإنسانية، سعياً إلى تجسيد قيم العدل والحق والخير والسلم والتعاون والإيثار والتسامح..، وغيرها من الفضائل السامية والقيم الإنسانية العالمية المؤسسّة لجوهر الحياة الأخلاقية وغايتها، والضامنة لتماسك المجتمع ووحدته وقوته وانسجامه، والتي يعتنقها ويؤمن بها مجتمع ما، فتغدو منبعاً للسلوك الإنساني ومصدره الأساسي، ومُلزمة حتمية لسلوك الأفراد، ومنظِمة لعلاقات الإنسان بالآخر والمجتمع، حيث لا تستقيم حياة المجتمعات الإنسانية من غير القيم الأخلاقية، التي تشكل النسيج الحيوي لوجود الإنسان والمجتمع معاً، بينما يؤدي غيابها أو تدهورها إلى تصدّع المجتمع وانهياره وتداعيه.

ولأن الفلسفة تعبير فكري عقلاني شامل؛ فقد شكل "النقد" أحد أبرز أدواتها لمواجهة الاغتراب الثقافي؛ من خلال تأكيد قيمة التفكير النقدي الذي يسمح باختلاف الأفكار والآراء من دون تعصب أو تطرف، وذلك عبر تنمية التفكير السليم، والدفاع عن حرية التفكير والاختلاف والمساءلة الدائمة مع

احترام حقوق الإنسان في بحثه عن الحقيقة ذات الطابع النسبي في أي مكان من دون مصادرة حقه في البحث والتفكير، فضلاً عن الدعوة لإعمال العقل والنظر إلى الأشياء بمساءلة نقدية فكرية بقصد كشفها والتثبت من حقيقتها وفحصها بعين الشك والكشف عن عيوبها، كما اعتمدت الفلسفة على المنطق والنظر البرهاني المستند على البديهيات العقلية ومعطيات الواقع والتجربة، والدعوة إلى التأمل والتفكر والتدبر، بما يسهم في بث روح الوعي داخل الأفراد والمجتمعات.

ويبقى لسلاحي السؤال، أي عقل "المساءلة والنقد"، والحق في الاختلاف، مكانة راسخة في الفلسفة، فالسؤال جوهر الفلسفة، وضمانة استمراريتها عبر الأزمنة والأمكنة، وهو، وفق هذا المعنى، سلاح الفلسفة الفعال في فك كُنْهِ المشكلات المجتمعيّة، وذلك عبر طرح السؤال والانخراط في فهم الأزمة ومحاولة البحث عن الأسباب والعلل المُولّدة لها، فالسؤال هنا ليس فقط من أجل فحص دعوى المحاور، وإنما أيضاً يتحدد غايته في عباره النقد، أي أن غاية السؤال في الفلسفة لم تعد تنحصر في فحص أجوبة المحاور قصد افحامه بالحجة

القاطعـة، وإنمـا تشـمل النظـر في المعرفـة وحـدودها مـن جهـة العقل، من أجل نقد وزعزعة الأفكار التي يعتنقهـا الفـرد وتـؤدي بـه للاغـتراب والتطـرف، عـن طريـق الحـوار المختلـف الـذي يهــدف إلــى إثــارة المزيــد مــن الأسـئلة وطــرح فــائض مــن الإشكالات، بـدون فـرض تصـور أو قناعـة مـا علـى أسـاس أنهـا قناعـة يقينيـة وسـليمة، وإنمـا في البحـث عمـا يجمـع ويؤلـف إنسـانيـاً، لنشـر قـيم الاخـتلاف والتسـامح والسـلم في المجتمـع، ففكر الاختلاف يحرر الفكرة من الانغلاق والتخشيب، ويخـرج اللغة من ثقافة الاجترار والتكرار والوقوع في دائرة التقليد، ويعيد الإنسـان المعاصـر إلـى رشـده الفكـري، وفهـم ذاتـه وعلاقتـه بـالآخرين التـي هـي في الأصـل اخـتلاف في الفكـر والاعتقـاد والثقافة، لأن الأصل في الوجود الإنساني هو الاختلاف.

ومـن هـذا التأصـيل الفلسـفي؛ قاربـت الفلسـفة أحـد الإشكاليات المعاصرة لتأثير التكنولوجيا في تعزيز الاغـتراب الثقافي، فعمدت إلـى تشخصيها وتحليلهـا ومعالجتهـا، لـيس من باب استبعاد "التقنية" تمامـاً من الحياة، وإنما من منطلـق الدعوة إلى تعاطيها إلى جانـب شعور الإنسـان بذاتـه، وكـبح

التغلغل التكنولوجي في المجالات الحياتية، حتى لا يفقد هُويته وقيمته الحقيقية وإحساسه بالقيم المجتمعية.

إن الفكر الفلسفي، بما يحمله من مبادئ وقيم ومن خصائص تدعمه، كفيل بصون الشباب، العربي عامة والأردني خاصة، من الاغتراب الثقافي، لما له من دور وازن في عقلنة الشباب وتحرير عقولهم، وتعليمهم كيفية التفرقة بين الفكر السويّ والفكر الخاطئ، وذلك من خلال تسليحهم بسلاح العقل والنقد، ليصبح الفرد قادراً على النظر إلى ما يعرض أمامه نظرة المحلل الناقد غير المُوجَّه، مثلما يساعد التفكير الفلسفي على التخلص من آراء واعتقادات خاطئة، وعدم التسليم بصحة شيء دون اختباره والاقتناع به والتأكد من صحته من خلال إعمال العقل والتأمل والتدبر العميق للتوقف عند أصل الظاهرة والأسباب الدافعة لها ومعالجتها بتروٍ وعدم تبني الأفكار والمسلمات الجاهزة بيسر، فالفلسفة بتعاليمها وقيمها ومسلماتها تعمل على تهذيب النفس والتعالي بها عن واقع الارتهان الفكري للآخر، وتجعل نظرة الإنسان للأشياء أكثر شمولية وعمقاً.

ماذا نفهم؟

- الاغتراب الثقافي حالة من انفصال الفرد عن ذاته وعن ثقافة مجتمعه، ومخالفة القيم والمعايير التي تضبط سلوك أفراده برفضها وعدم الالتزام بها، وتفضيل كل ما هو غريب عنها، مثلما يعكس ضآلة علاقات الفرد الاجتماعية، وغياب الشعور بوجود القيم المشتركة مع محيطه الاجتماعي، واجتناب المشاركة والانخراط في المجالات العامة.
- احتل مفهوم الاغتراب الثقافي مكانة وازنة في الفلسفة، نظير نتائجه الوخيمة التي تلحق الضرر ليس بالمغترب نفسه فقط وإنما بمجتمعه ووطنه، بما يمسّ مواطنته الفاعلة ويهدد أواصر النسيج المجتمعيّ والسلم الأهلي عندما يؤول بؤرة متمردة تتخذ من العنف والقوة سبيلاً لما يعتقده التغيير المنشود.
- إن هناك نتائج سلوكية تنجم عن الاغتراب الثقافي؛ ومنها العجز وفقدان الهوية والمعنى والهدف وجدوى الحياة، والعزلة الاجتماعية، والانسحاب واللامبالاة والرفض والتمرد.

- الاغتراب الثقافي يُعبّر عن أزمة الهُويّة؛ عندما يفقد الفرد الإحساس بهويته الشخصية أو الثقافية، إما بسبب تشتتها أو انغلاقها وقبول معتقدات الآخرين والانسياق لهم دون فحص أو تبصّر، مما قد يؤدي به إلى الانسحاب والعزلة والانغلاق في دائرة الأهداف الشخصية دون المصلحة الوطنية العليا أو سلوك طرق عنيفة ضد المجتمع ومعاييره.
- ربط بعض الفلاسفة بين التقدم التكنولوجي وتعزيز الشعور بالاغتراب الثقافي؛ إزاء تحويل "التقنية" للإنسان إلى أداة ووسيلة للإنتاج كالآلة، يخضع لسيطرتها، فباتت قيمته تقاس بما ينتجه، وضاعت منه قيمته الحقيقية، وأضحى مجرد سلعة، وفقد هُويّته وإحساسه بالقيم المجتمعية.
- في المنظور الفلسفي؛ فإن الفكر المتطرف يعدّ صنوانًا للاغتراب، حيث ينشط التطرف بين ثنايا شعور الشباب بالعزلة والعجز وغياب الهدف والمعنى والفراغ الفكري، والاحباط والسخط والكراهية لبيئتهم، في ظل وجود نزعة تدميرية تتجه إلى خارج الذات في شكل

سلوك عدواني، وأخرى تتجه إلى داخل الذات في شكل عزلة ونكوص وعدوان موجه إلى الذات.

- عندما يقترن شعور الإحباط بمشاعر تقدير الذات والمفهوم الإيجابي لدى الشخص عن نفسه، تنمو لديه مشاعر العدوان ضد "الآخر" الذي لا يقف منه موقف العداء فقط، بل موقف الرفض والإنكار، والذي قد يتطور إلى مستوى الإرهاب.
- تشكل النفسيّة المُغتربة التي تجد في الشبكة الافتراضية مُعيناً لغربتها، صيداً مُغرياً وسهلاً للحركات والتنظيمات المتطرفة، الناشطة عبر "السوشيال ميديا" لنشر أفكارها واستقطاب الشباب المنفصمين عن واقعهم الاجتماعي ومجالهم العام والمفتقدين للهدف والرؤية، والذين ينجذبون بسهولة للخطابات البلاغية المليئة بأحلام التغيير المنشود والحلول الجاهزة للتحديات المجتمعيّة، وقد يمضي وقتاً طويلاً حتى يدركوا مدى سذاجته وبعده عن الحقيقة، بل وتطرفه.

- تسعى الفلسفة لمواجهة الاغتراب الثقافي عبر نشر قيمها المتشبعة بمبادئ أخلاقية كونية إنسانية، وإعلاء قيمة الفكر النقدي وقيم التسامح والاختلاف وقبول "الآخر" المختلف، دينياً وثقافياً وسياسياً، والدعوة إلى المساءلة والبحث عن المعنى وإعمال العقل الإنساني وتحريره من القيود والكوابح التي تكبل مناشط الإنسان، وتمنعه من حرية البحث والتصور والإبداع، وتغرقه في أتون الاغتراب.
- إن الفكر الفلسفي، كفيل بصون الشباب، العربي عامة والأردني خاصة، من الاغتراب الثقافي، لما له من دور وازن في تحرير عقولهم، وتسليحهم بسلاح العقل والنقد، وتهذيب النفس والتعالي بها عن واقع الارتهان الفكري للآخر، وجعل النظرة للأشياء أكثر شمولية وعمقاً.

نشاط عقلي

السؤال الأول: ما هي العوامل المؤدية للاغتراب الثقافي، وإلى أي حد ترتبط بالشخصية وبالبنى الثقافية السائدة؟

السؤال الثاني: ما هي نتائج الاغتراب الثقافي على صعيد السلوك الفعلي عند الشباب، وبخاصة المتعلقة بمشاركتهم في الحياة العامة؟

السؤال الثالث: ما أهمية وعي الشباب لنوعية اغترابهم وما هي بدائل التعامل معه؟، فهل يتم برأيك اتخاذ سبل الانسحاب والعزلة، أم الرفض والتمرد، أم يتّجه لخيار ثالث وما هو؟

السؤال الرابع: كيف تسهم وسائل التواصل الاجتماعي، برأيك، في تعزيز الاغتراب الثقافي عند الشباب؟ وما هي الأساليب التي يمكن من خلالها مواجهة ظاهرة الاغتراب الثقافي في ظل التغيرات العديدة التي يشهدها عصر العولمة؟

السؤال الخامس: كيف من الممكن أن تسهم الفلسفة، برأيك، في مواجهة الاغتراب الثقافي؟

الفصل الرابع

الفلسفة وتعزيز قيم المواطنة

أختي الشابة/ أخي الشاب

يمكنك أن تستشف مما سبق النتائج المجتمعيّة الوخيمة الناتجة عن التطرف والاغتراب الثقافي، والتي تحدثنا عنها في الفصلين السابقين، وذكرنا أنها تشكل، في جانب منها، مساساً بالمواطنة الفاعلة، ومقوماتها، حيث سنحاول في هذا الفصل توضيح تلك الجزئية فقط وعلاقتها بالفلسفة، لأغراض البحث، بدون الدخول في تفاصيل المنظور الفلسفي لمفهوم المواطنة، وتطور مساره لاسيما على يد فلاسفة التنوير والفكر الفلسفي السياسي، فليس مجاله هنا.

إن محاولة البحث في العلاقة الضديّة بين الفلسفة والمواطنة من جهة، والتطرف والاغتراب الثقافي من جهة أخرى، تستهدف تبيان أهمية الحاجة الفعلية إلى الفلسفة في مختلف المجالات الحياتية، من أجل ترسيخ روح المواطنة الفاعلة، وايجاد مُواطن يؤمن بقيم العقل والحوار والحرية والتعدد والتسامح، ويجسدها في حياته اليومية والعلمية، بما

يشكل "صمام" أمان وازن للشباب لعدم الوقوع في براثن الفكر المتطرف وأتون الاغتراب الثقافي، ويعزز في المحصلة مسار التحول الديمقراطي وبناء الدولة المدنية الحديثة، التي يسهم الشباب بتنميتها وتطويرها والرفع من شأنها.

فالفلسفة تعزز قيم المواطنة الفاعلة في المجتمع، بوصفها تعبيراً عقلياً وفكرياً منطقياً زاخراً بالقيم الإنسانية الأخلاقية الداعية للحوار والتسامح والاختلاف والتعدد وقبول "الآخر"، المختلف فكراً وعقائدياً، واحترام التنوع الثقافي وفق قاعدة العدالة والمساواة والعيش المشترك، وهي نفس المنظومة القيميّة التي يقوم عليها مفهوم المواطنة الفاعلة، وهي ذاتها الأفكار المضادة للتطرف والاغتراب.

وإذا كانت الفلسفة تقف سداً مضاداً للفكر المتطرف، وتسعى تنظيريّاً ومنهجيّاً وعمليّاً، لمحاربته، أسوة بموقفها المناهض للاغتراب الثقافي، نظير تبعاتهما المهدّدة لأواصر النسيج الاجتماعي وللسلم الأهلي والأمن المجتمعيّ، فإنها بذلك تتلاقى مع قيم المواطنة التي تتناقض كلياً مع أسانيد

التطرف والاغتراب الثقافي، فكراً وسلوكاً ظاهرياً، لما يشكلان معاً مساساً مباشراً بِأسّ مكوناتها وركائزها الفاعلة.

يمكنك أن تجد طرائق محاربة الفلسفة للتطرف والاغتراب الثقافي في مقومات مبدأ المواطنة، (Citizenship) الذي مرّ عبر التاريخ بمحطات تاريخية نما فيها المفهوم حتى وصل إلى دلالته المعاصرة. وتشير دائرة المعارف البريطانية إلى المواطنة بأنها "علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة"، وتؤكد أن المواطنة تدل ضمناً على "مرتبة من الحرية مع ما يصاحبها من مسؤوليات". وبالرغم من ترادف الجنسية، غالباً، للمواطنة، حيث تتضمن علاقة بين فرد ودولة، إلا أنها تعني امتيازات أخرى خاصة، منها الحماية في الخارج، إذ إن المواطنة "تسبغ على المواطن حقوقاً سياسية، مثل حق الانتخاب وتولي المناصب العامة" (الكواري، ٢٠٠١: ١١٨). فيما تذكر موسوعة الكتاب الدولي أن المواطنة هي "عضوية كاملة في دولة أو في بعض وحدات الحكم". ولا تميز هذه الموسوعة بين المواطنة

والجنسية أسوة بسابقتها، وتؤكد أن "المواطنين لديهم بعض الحقوق مثل حق التصويت وحق تولّي المناصب العامة، وكذلك عليهم بعض الواجبات مثل واجب دفع الضرائب والدفاع عن بلدهم" (World Book International: 15)، فهي علاقة تبادلية بين الفرد والدولة يحددها القانون بما تتضمنه من حقوق وواجبات، ومقومات أساسية داعية إلى العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص، وحرية الفكر والنشاط، والمشاركة في الحياة العامة وصنع القرار، وبما يترتب عليها من التزامات ومسؤوليات تجاه الوطن، لتنميته والرفع من شأنه.

وخلافاً للفكر المُتطرف والمُغترب؛ فإن المواطنة، التي تشكل مكوناً أساساً في بنيان الديمقراطية، تستهدف إعلاء لغة الحوار والتوافق، واحترام الاختلاف والتنوع الثقافي والعقائدي والفكري بين أفراد المجتمع، وحفظ الحقوق والحريات، وترسيخ مبادئ الكرامة الإنسانية والحرية والمساواة، وتعزيز الانخراط في الحياة العامة، وتحفيز الأفراد على تقديم التزاماتهم وواجباتهم تجاه الدولة مقابل تحمّلهم مسؤولية المشاركة في شؤون الحكم، وفق قاعدة

تقديم مصلحة الوطن على المصلحة الخاصة الضيّقة، بما يقوي أسّ المواطنة الفاعلة ويساعد على بناء الدولة.

وإذا كانت ثيمة الانتماء للوطن مفقودة عند كل من المتطرف والمغترب، فإنها تشكل مقوماً أساسياً للمواطنة، عبر تعزيز روح الانتماء والولاء للوطن، والذي لا ينحصر فقط في الجانب الوجداني، وإنما أيضاً في إدراك الفرد لأهمية التقيد التام بالالتزامات والواجبات تجاه وطنه والدفاع عنه، والشعور بالمسؤولية لتحقيق النفع العام والارتقاء بوطنه وخدمته وتنميته.

وتعكس "المواطنة الفاعلة" نفسها، بشكل أو بآخر، في صور إدراك احتياجات الوطن والحفاظ على مقدراته وممتلكاته العامة والخاصة وصون إنجازاته، والإحساس بالمسؤولية الاجتماعية تجاه المجتمع وقضاياه الأساسية، والإقبال على المشاركة في الحياة العامة، وإعلاء الهوية الوطنية الجامعة على حساب "الولاءات" الأولية، والنزعات الخلافية، بوصفها ركائز أساسية للمواطنة الفاعلة.

ماذا نفهم؟

- إن هناك حاجة فعلية إلى الفلسفة في مختلف المجالات الحياتية، من أجل ترسيخ روح المواطنة الفاعلة، وايجاد مُواطن يؤمن بقيم العقل والحوار والحرية والتعدد والتسامح، ويجسدها في حياته اليومية والعلمية.
- إن التبعات المجتمّعية القاتمة الناتجة عن التطرف والاغتراب الثقافي، تشكل، في جانب منها، مساساً بالمواطنة الفاعلة، ومقوماتها.
- إن الفلسفة تعزز قيم المواطنة الفاعلة في المجتمع، بما تقوم علية من منظومة قيمية إنسانية أخلاقية تنسجم مع مفهوم المواطنة، ولكنها تتناقض كلياً مع أفكار التطرف والاغتراب الثقافي.
- إن قيم المواطنة تتناقض كلياً مع أسانيد التطرف والاغتراب الثقافي، فكراً وسلوكاً ظاهرياً، لما يشكلان معاً مساساً مباشراً بِأس مكوناتها وركائزها الفاعلة.
- إن الفلسفة وقيم المواطنة تشكلان "صمام" أمان وازن للشباب لعدم الوقوع في براثن الفكر المتطرف وأتون

الاغتراب الثقافي، ويعزز، في المحصلة، مسار التحول الديمقراطي وبناء الدولة المدنية الحديثة، التي يسهم الشباب بتنميتها وتطويرها والرفع من شأنها.

نشاط عقلي

السؤال الأول: كيف تعزز الفلسفة روح المواطنة في محاربتها للتطرف والاغتراب الثقافي؟

السؤال الثاني: ما هي أبرز مقومات المواطنة التي تتناقض، برأيك، مع أفكار التطرف والاغتراب الثقافي؟

السؤال الثالث: هل تعتقد أن هناك حاجة للفلسفة لترسيخ روح المواطنة، والتصدي للفكر المتطرف والمغترب؟

السؤال الرابع: هل المؤسسة التعليمية، برأيك، تعزز مفهوم المواطنة، وتشجع الطلبة على أن يكون لديهم انتماء وطني، وتناقش المشاعر الوطنية؟

الخــاتمة

أختي الشابة/ أخي الشاب

لقد حاول "الكتاب"، عبر فصوله الثلاثة، توضيح ماهيّة الدور الوازن للفلسفة في حل المشكلات الحادّة المعاصرة، التي تتصدر واجهة المشهد الإقليمي العربيّ، منذ سنوات ليست قليلة، نظير مكانة مبادئها وغاياتها وقيمها الإنسانية السامية وقدرتها على مقارعة تحديات العصر.

وقد اتخذ "الكتاب" من ظاهرتيّ التطرف والاغتراب الثقافي، المُناقضتين للخطاب الفلسفي، نموذجًا لدراسته، إزاء النتائج الوخيمة الناجمة عنهما والمُهددة لأواصر السلم والأمن المجتمعي ولأس المواطنة الفاعلة، ونظير استهدافهما الأكبر لصفوف فئة الشباب الأكثر تأثراً بهما، مما شكل هدفًا محوريًا للكتاب تجاه محاولة تعزيز وعي الشباب، العربي عامة والأردني خاصة، لمخاطر مقاربتهما، فكراً واعتقاداً ومنهجًا، وتبعات استلالهما القاتمة والتي لا تصيب خانتيّ المتطرف

والمغترب فقط، وإنما تتجاوزهما، دون مبارحة ضررهما، صوب فضاءات البيئة المجتمعة المحيطة.

ولعلك استطعت مما سبق تبيّن مرافد الفلسفة الفكرية والقيميّة المضادة للتطرف والاغتراب الثقافي، والمنهجيّة التي قارب بها الفكر الفلسفي التحديات الناجمة عنهما، وأدواته الفكرية والنقدّية لمواجهتهما وإيجاد الحلول المنافحة لهما، وطرائقه الكفيلة بتحرير الواقع من الخطابات المحرّضة على العنف والتطرف والارهاب، والقيم الإنسانية التي تحفل بها الفلسفة وتدافع عنها سبيلاً لمواجهة مشكلة الاغتراب الثقافي، والتي من شأنها، أيضـًا، أن تعزّز قيم المواطنة التي قد تصبح ضحيّة تداعيات تلك الإشكاليات مجتمعة.

وقد يتبادر إلى ذهنك تساؤل حيال الكيفية التي يستطيع الشباب من خلالها مواجهة المشكلات المعاصرة، مثل التطرف والاغتراب الثقافي، عند استلال الفلسفة منهجـًا حياتيـًا؛ وهو تساؤل مهم تكمن إجابته في الفلسفة نفسها، بوصفها تعبيراً عقليـًا وفكريـًا منطقيـًا وخطابـًا معنيـًا بدراسة طبيعة الواقع وساعيـًا إلى الإصلاح المجتمعي بإنشاء الظروف المواتية

لتحقيق التغيير وإحلال السلام والتنمية المستدامة، وذلك بما تزخر به من قيم إنسانية سامية تدعو إلى الحوار والتسامح والتعدد والتعايش المشترك واحترام "الآخر"، المختلف فكراً واعتقاداً، مثلما تنادي بثقافة المشاركة والالتزام بالواجبات وتحمل المسؤولية المجتمعية وتقديم المصلحة الوطنية العليا على المصلحة الشخصية الضيّقة، والتي تصبّ جميعها في منظومة القيم والمعايير الأخلاقية التي لا يقوم مجتمع إلا بها، والتي ترسم خريطة طريق حياتية لتهذيب النفوس وإرشاد الأفراد، لاسيما الشباب منهم، إلى السلوك السويّ واجتناب الخاطئ منه، والتمييز بين الخير والشر، وترسيخ فضائل العدالة والمساواة والحرية المسؤولة، بما يعود بالخير والمنفعة على الأفراد والمجتمعات معًا.

أما منهجيًا؛ فإن الفلسفة تستحث إعمال العقل والفكر والنقد والتحليل والتفسير والنقاش العقلاني، وهي أدوات وازنة تسهم، عند استلال الشباب لها وتجسيدها واقعًا حياتيًا، في تعزيز وعيّهم حيال تحديات العصر وسبل مواجهتها، وتطوير قدراتهم المعرفية وتحرير قدراتهم

الإبداعية، من خلال تقنيات التفكير والبراهين التي تقدمها الفلسفة، بما يساعدهم على التساؤل الدائم وتحدي الأفكار المغلوطة ومعرفة السلوكيات الصائبة والخاطئة، وفهم القضايا الإشكالية بكثير من اليقظة، سبيلاً لتعويد الذهنية الشبابية على مواجهة التفكير المنغلق ومصارعته، وبالتالي تهيئتهم لتكوين اتجاهاتهم بشكل مستقل، بما يؤهلهم للمشاركة والمواطنة الفاعلة في الحياة العامة.

كما يساعد الفكر الفلسفيّ الشباب على عدم التسليم بصحة فكرة أو شيء ما بدون اختباره والاقتناع به والتثبت من مصداقيته، عبر إعمال العقل والتأمل والتدبّر العميق للتوقف عند أصل الظاهرة والأسباب الدافعة لها وتشخيصها بتروٍ وعدم تبني الأفكار والمسلمات الجاهزة بيسر أو الانصياع للآخرين وتمكينهم من السيطرة على عقولهم وتوجيه سلوكهم، عبر تذكية الفلسفة للنظرة الشمولية العميقة.

إن الفلسفة، بثقافتها وقيمها وأدواتها، تعد وسيلة مُعتبرة لتحصين الشباب، العربي عامة والأردني خاصة، من آفات التطرف والعنف والتعصب والاغتراب والانزلاق نحو

مهالـك الإرهـاب، مثلمـا تعـدّ حـلاً اسـتباقيـاً، إلـى جانـب المعالجـة الأمنيـة، لتفكيـك التصـورات الأصـولية العنفيّـة والبـؤر التكفيريـة، مـن خـلال حضـورها النقـديّ التحليلـي وأسئلتها المزمنة لادعـاءات ومآلات الأفكـار التي يحملهـا المتطرفـون، وتقـديم أطروحـة معاكسـة تقـوم علـى شـرعية احـترام الاخـتلاف والتبـاين الفكـري والعقائـدي، فضـلاً عـن انشـغالها بالتصـدي لمشـكلة الاغـتراب الثقـافي التـي تطـال أضـرارها الفادحـة أصـول المـواطنـة الفاعلـة، عنـد المسـاس بعلاقـة الفـرد بوطنـه وبحسّـه وانتمائـه الـوطني، وبمسـؤولياته تجاه مجتمعه، وبضعف مشـاركته في الحيـاة العامـة، بوصـفها جميعــاً إشــكالات قاتمــة تسـتهدف تهديـد السـلم والأمـن المجتمعيّ، والسير بالمنطقة نحو مزيد من عدم الاستقرار.

يمكنـك أن تستشـف ممـا سبق أهميـة دور الفلسـفة في حـل المشـكلات المعاصـرة؛ مما يُبرز هنا جملـة توصيات تـدعو إلـى ضرورة إدخـال "التربيـة الفلسـفية" في صـلب العمليـة التعليميـة، عبر تفعيلها في النظام التعليمي العربي، على المستوى المدرسـي والجامعي، من أجل غـرس القيم والمبادئ الفلسـفية في نفـوس

وعقول الطلبة والشباب، لتعزيز التنمية الشاملة والمستدامة لشخصياتهم، والعمل على توسيع نطاقها مجتمعياً بالنزول بها بلغة مُبسطة جماهيرياً، وعدم الاكتفاء بها ضمن الحيز الضيق للدارسين والمشتغلين في نطاقها، نظراً لميزتها التي تجعلها تقترب من الإنسان لذاته بوصفه إنساناً.

ولعلك تلاحظ حيوية دور المؤسسة التعليمية، المدرسة والجامعة، في بناء شخصية الطلبة والشباب وتنمية قدراتهم والحفاظ على هويتهم وثقافتهم وإعدادهم، وجدانياً وعقلياً واجتماعياً، لتشكيل شخصية متوازنة تضبطها منهجية التفكير وعقلانية التدبير، عبر تعزيز الحوار والتفاهم وتنمية روح الانتماء للوطن واستيعاب ثقافته والاندماج فيه وترسيخ وطائد التواصل مع البيئة المجتمعية وفق أنماط القيم المقبولة اجتماعياً، والتعامل مع الآخرين وفق أسس الاحترام المتبادل والتفاهم والحوار، وترسيخ الوعي بالذات الوطنية ومتطلباتها، وتكثيف الأنشطة اللامنهجية والمجتمعية التي تضمن تكوين اتجاهات إيجابية نحو الهوية الثقافية للمجتمع، وربط المناهج الدراسية بقيم الثقافة الوطنية

والعربيـة، والتـي تعـزز عنـد الطلبـة قـيم التفـاهم والـتلاحم والتعاون.

ومـن ذلـك؛ تعـد الفلسـفة، إلـى جانـب الجهـود الأمنيـة والتربويـة والثقافيـة والإعلاميـة والدينيـة والتنشـئة الأسـرية، معالجـة فكريـة وقائيـة مضـادة لمثالـب العنـف والتطـرف والاغتراب، بُغية إصلاح الفئات التي وقعت في براثنها وإعادة ادماجها مجتمعياً، وتحصين الشباب فكرياً وعملياً من الوقوع في براثنهـا، ممـا يكشـف عـن الحاجـة الفعليـة إلـى الفلسـفة في مختلـف المجـالات الحياتيـة، مـن أجـل ترسيخ روح المواطنـة الفاعلـة، وإيجـاد مُـواطن يـؤمن بقـيم العقـل والحـوار والحريـة والتعدد والتسامح، ويجسدها في حياته اليومية والعلمية.

وفي هذا السياق؛ تبرز أهميـة تضـافر الجهـود الوطنيـة لتنميـة الـوعي الـوطني عنـد الشـباب "بمـواطنيتهم"، بوصـفها منظومـة قيميّة تفاعلية يتم فيهـا إعـلاء المصـلحة الوطنيـة العليـا وترسيخ قيم الولاء والعطاء، وتعميق الإحسـاس بـروح الانتمـاء للـوطن، مـن خـلال أدوار مجتمعيـة متكاملـة تسـاهم التنشـئة الأسـريّة في مضـمارها الحيـويّ الأبـرز لإيجـاد المـواطن الصـالح المنتمـي

لوطنه والمُعتز به والمُتمسّك بترابه وهويته الثقافية، بينما تعمل المؤسسات التربوية والتعليمية على انضاجها لاحقًا عبر إشاعة لغة الحوار بين الطلبة والشباب، وتنمية روح العمل الجماعي لديهم، وتوسيع أفق مداركهم حيال واقع مجتمعهم والتفاعل مع قطاعاته والمساهمة في خدمته، وتشجيع مشاركتهم في أنشطة مجتمعية تطوعيّة، وتعزيز مفهوم "الثقافة المدنية" عندهم لاستنادها إلى أسس الولاء والانتماء والمشاركة في الحياة العامة، والتي تلعب المؤسسات الإعلامية والدينية والمدنية، كل في نطاق عمله، دوراً وازنًا في تنميتها وتعزيزها، بما يوفّر، في المحصلة، "حصانة" مجتمعيّة مضادة للأزمات الداخلية والأجندات الخارجية، ومُحققة "للأمن الوطنيّ"، بمفهومه الشموليّ الحياتيّ غير المقتصر على الشق العسكريّ اللوجستيّ فقط، دونما خوف على نسيج الدولة وترابطها.

الثبـت التعريفي

"التطرف" (Extremism)

يبزغ التطرف من بين ثنايا مثالب الغلوّ والمبالغة والتعنت، في عقيدة أو فكر أو مذهب مما يختص به دين أو جماعة أو حزب، صوبّ إتيان اتجاه أحاديّ ينتحي أقصى درجات التشدد بعيداً عن حدّ الاعتدال، مع إغفال ما يمكن للاتجاهات الأخرى أن تتضمنه من معنى ومعقولية وصدق. والتطرف خروج عن القواعد الفكرية والقيم والمعايير والأساليب السائدة في المجتمع، بسبب رفض الواقع المحيط بما يحمله من منظومة قيميّة وعقائدية وثقافية مجتمعيّة، وهو، أيضًا، تجاوز لحدود الاعتدال والوسطيّة في الفكر الإنساني، الآيلة، مجتمعة، إلى أفكار وأفعال ضارة بالنفس والمجتمع، نتيجة حالة من الانغلاق الفكري وضيق الأفق ومحدودية الرؤية تقود بالمتطرف إلى عدم تقبل "الآخر" المختلف، فكراً ومعتقداً، وعدم القدرة على التسامح معه، استلالاً لتبني موقف متشدد

يرى فيه المتطرف "حقيقته المطلقة"، ويحاول فرضها بالقوة مستخدماً العنف تجاه الآخرين، بما يجُبّ في طياته حالة استعلاء للذات، بوصفها الأفضلية عن "الآخر"، الأدنى والأقل، نتيجة حالة من التضخيم الذاتي تؤدي إلى انعدام الرؤية وعدم إدراك الحقائق بشكل صحيح، نظير ضيق أفق المتطرف ورفضه المناقشة العقلانية وتطرف معتقداته، حدّ رفض سيادة القانون والتعددية والمبادئ الديمقراطية.

والفكر المتطرف يأخذ بطرف الشيء، فيبقى في حدود أطرافه وقشوره السطحية، بدون أن يتأتى له بلوغ جوهره، والنفاذ إلى عمقه، بما يُحيل إلى الجهل به، مع تغليفه بمعرفة مزعومة تستحيل تعصّباً مقصوداً، وتطرفاً مذهبيّاً منحازاً ومتحيزاً. حيث تأخذ الذات الفاعلة، سواء أكانت فرداً أم جماعة أم حركة تنظيمية، بناصية الأطراف والهوامش تعبيراً عن موقفها الكارِه للمركز، الذي قد يكون دولة أو أمة أو جماعة، والمنطوي على صنوف الحقد والعداوة والبغض والنقمة، الناشئة إما بتوجه خاص أو بانجرار وراء حركة ما أو لتحقيق هدف معين أو نتيجة الظروف المجتمعيّة المحيطة، بما يجعلها،

في المحصلة، خارجة عن سُنّة القوم ودينهم، عقديًا أو سياسيًا، بل وأيديولوجيًا أيضًا.

دوغمائية (Dogmatism)

وتعني حالة من الجمود الفكري التي يتعصب فيها الشخص لأفكاره ومبادئه وقناعاته الخاصة لدرجة رفضه الاطلاع على الأفكار المخالفة حتى وإن ظهرت له الدلائل التي تثبت له خطأ أفكاره، فإنه سيحاربها بكل ما أوتي من قوة ويصارع من أجل إثبات صحة أفكاره وآرائه، وتلك هي اللبنة الأولى لبناء صرح التطرف في شتى أبعاده وأشكاله.

العنف (Violence)

العنف مضاد للرفق، ومرافق للشدة والقسوة، فعلٌ مُوجه ضدّ "الآخر"، واستعمالٌ للقوة بطريقة غير شرعية وغير قانونية ضد "الآخر" الذي لم يعد طرفًا في التواصل، من أجل فرض إرادته عليه، بعدما تحول في نظر مُستعمل القوة إلى مجرد شيء. كما يُعرّف بأنه عملية قتل، حتى وإن كانت هذه العملية لا تذهب إلى حدودها القصوى، مثلما لا تنخفض حدة العنف عن طريق الإزالة المادية للشخص أو

للمجموعة المقصودة، إذ يعتبر هدف العنف الرئيس التدمير والرغبة في القضاء على الآخر واستبعاده وإقصائه، واختزاله إلى كينونة صامتة يصبح أقوى من الرغبة في الحوار والنقاش معه، فهو كل ما يؤدي إلى نفي "الآخر".

ويمكن أن يأخذ العنف أشكالاً متعددة وبأشكال متفاوتة، مثل الإهانة والضرب والإعتداء والسلوك الإرهابي، كما قد يتخذ طابع العنف الأسري أو العنف الجامعي أو العنف المجتمعيّ. ويعتبر العنف ظاهرة معقدة تتدخل عناصر، نفسية واجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية، مختلفة في نشوئها وتكونها.

التعصّب (Fanaticism)

التعصب هو الاعتقادات أو التصرفات التي تنطوي على أخذ مواقف بدون تمحيص بسبب الغيرة والحماس المفرِّط، حيث يُظهر المُتعصِب معايير صارمة للغاية تجاه أفكاره وبتسامح قليل تجاه الأفكار أو الآراء المعارضة. وإذا كانت الآراء غير مبنية فسرعان ما تستحيل إلى اعتقادات، وعندما يعتقد المرء بفكرته ويؤمن بها، تسلبه فيتعصب لها، وعندما

تنعدم إمكانية التدليل عليها، فيبدي المرء حرصه عليها تحت تأثير رغبة قوية، وانفعال شديد يُعمي بصيرته، ويُهيمن على إدراكه وتعقله.

الإرهاب (Terrorism)

يقود التطرف العنيف والمتعصّب إلى الإرهاب، والذي يُعرف بأنه "استخدام، أو محاولة استخدام الإرهاب كوسيلة من وسائل الإكراه"، كما يُعرف بأنه الاستخدام المنهجي للعنف، لخلق مناخ عام من الخوف والإكراه والترهيب لدى السكان، وقتل المدنيين، بهدف تحقيق مكاسب سياسية معينة. ويعني الاستخدام المنهجيّ للعنف أن الإرهاب ينشأ عن بنية فكرية صلبة تحتاج لتفكيكها، وإدراك ماهيتها، وأبعادها، فقد بينت الدراسات أن كل تنظيم إرهابي يستند إلى إيديولوجيا تأسيسية مهدت لظهوره، وبنية تنظيمية قوية.

الاغتراب الثقافي (Cultural Alienation)

يُعرف الاغتراب الثقافي بأنه ابتعاد الفرد عن الثقافة الخاصة بمجتمعه، من حيث العادات والتقاليد والقيم السائدة، ومخالفة المعايير التي تضبط سلوك أفراده، حيث

يرفض الفرد هذه العناصر وينفر منها ولا يلتزم بها، ويفضل كل ما هو غريب وأجنبي عنها. ويعكس الاغتراب ضآلة علاقات الشخص الاجتماعية من حيث الشعور بالاندماج أو بوجود القيم المشتركة بينه وبين محيطه الاجتماعي، فهو يعني حالة شعور الشخص بالغربة أو العزلة عن الآخرين، في بيئة العمل والمجتمع، فالفرد لا ينغمس في العلاقات الشخصية أو في أي من المجالات العامة، مثل الشئون العامة والعالمية، ويكون لديه الشعور بالعجز وأنه لا يملك هدفًا، لأنه لا يمكنه السيطرة على مصيره الذي يتم تحديده من قبل عوامل خارجية، ويشير الاغتراب الثقافي إلى حالة الشخص النفسية وإلى تكوينه الثقافي بما يمس شخصية أمته الثقافية ومكوناتها.

ويؤدي الاغتراب الثقافي، عادة، إلى الاغتراب الاجتماعي، عبر استجابات سلوكية سلبية كالانسحاب والعزلة الاجتماعية، تعبيراً عن حالة الانفصال بين الفرد وبيئته، فينشأ عنها مجموعة سلبية من النتائج، مثل الغربة الثقافية والشعور باليأس وانعدام الأمل وحالات التوتر والقلق النفسية.

العجز (Powerlessness)

يعد الشعور بالعجز أحد الأبعاد والمظاهر الأساسية للاغتراب الثقافي، ويقصد به بشكل عام الشعور بألّا حول ولا قوة، وبضعف الفرد وعجزه عن التصرف إزاء المواقف التي تواجهه في حياته، و"بعدم قدرته على السيطرة عليها، أو على حياته وبعجزه عن السيطرة على تصرفاته ورغباته وافتقاره إلى الشعور بأنه قوة حاسمة ومقررة في حياته، وفقدان الشعور بتلقائية ومرح الحياة"، وعدم القدرة على التحكم أو التأثير في مجريات الأمور الخاصة به، أو في تشكيل الأحداث العامة في مجتمعه، وبأنه مقهور مسلوب الإرادة ولا يقدر على الاختيار، ولا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية التي يواجهها، ويعجز عن أن يتخذ قراراته أو يقرر مصيره أو يؤثر في مجرى الأحداث، فإرادته ومصيره ليس بيديه بل تحددهما قوى خارجة عن إرادته الذاتية، وبالتالي يشعر المرء بالإحباط والعجز عن تحقيق ذاته.

اللاهدف (Aimlessness)

يشير إلى شعور الفرد بعدم وجود هدف محدد للحياة، إزاء شعوره بالغربة والانفصال عن ذاته، وعدم قدرته على

التواصل مع نفسه وشعوره بالانفصال عما يرغب في أن يكون عليه، حيث تسير حياة الفرد بلا هدف ويحيا مستجيباً لما تقدمه الحياة دون تحقيق ما يريد من أهداف، وعدم القدرة على إيجاد الأنشطة المكافأة ذاتياً، وقد يرجع ذلك إلى غياب المعايير والقيم الاجتماعية التي يمكنها أن تُوجه سلوك الفرد، وتعطي معنى أو هدف للحياة، فيفقد الفرد بفقدانها الأمل في وجود ما يساعده على معرفة ذاته ويوجه سلوكه، وعند شعور الفرد بأن "الحياة تمضي بغير هدف واضح أو غاية لحياته وأنه ليس لديه طموحات أو آمال مستقبلية، بل يعيش لحظته الحالية فقط، فإنه يفقد الهدف من وجوده ومن عمله ومن معنى الاستمرار في الحياة"، بما ينتج عن ذلك حالة اضطراب في سلوك الفرد وأسلوب حياته، فيؤدي به إلى التخبّط في الحياة وضلّ الطريق.

اللامعنى (Meaninglessness)

ويرتبط ذلك البعد ارتباطاً وثيقاً بنظيره "اللاهدف"؛ عند شعور الفرد بعدم جدوى الحياة وانتفاء الغاية أو الهدف الذي يحكمها، نظير شعوره بتعقد الحياة، وعصياتها على

الفهم، حتى أنه لا يجد جدوى لاختياراته، ولا يدري إلى أي شيء تؤدي به هذه الاختيارات، كما لا يعرف الهدف الذي يسعى لبلوغه من ورائها.

وتدور معظم تعريفات "اللامعنى" في فلك هذين المعنيين؛ سواء من حيث شعور الفرد بلا معنى أو لا هدف ولا جدوى الحياة، أو شعوره بتعقدها وعدم فهمه لها وعدم قدرته على التنبؤ بنتائج السلوك أو الاختيار من بين ما يتاح له، فهو يرى أن الحياة لا معنى لها، وأنها تسير وفق منطق غير معقول، كما لا يوجد شيء فيها، من وجهة نظر المغترب، له قيمة أو معنى، نظراً لخلوها من الأهداف والطموحات، كما أن الأحداث والوقائع المحيطة به قد فقدت دلالتها ومعقوليتها، ومن هنا ينظر الفرد إلى المستقبل باعتباره سلسلة من عدم التأكد أو عدم اليقين، واستحالة عمل أي توقعات أو تنبؤات للأحداث أو الأدوار التي يؤديها في الحياة، ومن ثم يشعر بالتغرّب في حياته التي باتت لا جدوى منها، فيفقد واقعيته، ويصبح أسيراً لمشاعر اللامبالاة والفراغ الوجودي.

اللامعيارية (Normlessness)

وتمثل "اللامعيارية" فقدان المعيار، وعدم وجود نسق منظم للمعايير أو القيم والضوابط الاجتماعية التي تُمكن الفرد من اختيار الفعل الأكثر اتفاقاً مع وضع معين، أو التي تُوجه سلوكه وتساعده في تحقيق أهدافه، نظير تضارب تلك القيم وتناقضها، ونتيجة رفض المغترب للقيم والمعايير والقواعد السائدة في المجتمع، عقب انهيارها، بالنسبة إليه، وغياب منسوب تأثيرها فيه، وانتفاء صفتها كمنظومة قيمية منظمة وموجهة للسلوك، وفقدانه الثقة في المجتمع ومؤسساته، فيشعر الفرد حينها باختلال المعايير الاجتماعية التي أقرها المجتمع وارتضى بها، مثل العادات والتقاليد والأعراف وأخلاقيات التعامل التي تحكم السلوك، بما يؤدي إلى حدوث نوع من الانفصال بين أهداف الفراد وبين قيم المجتمع ومعاييره، فتختل علاقته بالآخرين وتصبح سطحية يشوبها انعدام الثقة وعدم الاهتمام بمشاعرهم.

إن توقع الفرد بأن السلوكيات الاجتماعية غير مجدية لتحقيق أهدافه، يؤدي به لاتخاذ مواقف حياتية هامشية، والسعي لبلوغ هدفه بغض النظر عن مشروعية الوسيلة أو

انسجامها مع النسق الاجتماعي الثقافي، حيث تذوب هنا القيم والضوابط الاجتماعية في خضم رغباته الشخصية الباحثة عن الإشباع بأية وسيلة، باعتبار أن الغاية تبرر الوسيلة بالنسبة إليه، فضلاً عن الانتماء إلى منظومة قيمية خارج ما تعارف عليه المجتمع وما يحكمه من معايير أخلاقية.

التشيؤ (Reification)

يعني "التشيؤ" شعور الفرد بأنه قد فقد هويته، وأنه مجرد شيء أو موضوع أو سلعة، وأنه لا يملك مصيره، حيث يشعر أنه مقتلع الجذور، غير مرتبط بنفسه أو بواقعه.

العزلة الاجتماعية (Social Isolation)

ويدور المعنى حول شعور الفرد بالوحدة والفراغ النفسيّ، وافتقاد الاتصال بالآخرين من حوله، نظراً لعدم قدرته على التوافق معهم، فيؤثر البعد عنهم حتى وإن وُجد بينهم، بما يصاحبها من خوف وقلق وعدم ثقة بالآخرين، تنسحب بدورها على البيئة المحيطة به حينما يشعر بوجود فجوة بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه، نظير عدم إحساسه بالانتماء إليه أو التكيف معه، وغياب الروابط التي تجمعه معهم، فيلتزم العزلة،

التي تتخذ نوعين؛ عزلة مفروضة على الفرد نتيجة فشله في إقامة علاقات اجتماعية مع الآخرين، وعزلة اختيارية يرتضيها الفرد ويصر عليها حين يشعر بعدم الالتقاء الفكري والثقافي والقيميّ مع المجتمع والأفراد من حوله.

ويُعبر هذا البعد عن انسحاب الفرد وانفصاله عن المعايير الاجتماعية وثقافة مجتمعه السائدة، وما يترتب عليه من عدم الرغبة في تحقيق التوافق الاجتماعي، والابتعاد عن المشاركة في الأنشطة الاجتماعية، بحيث يكون الفرد في حالة تناقض بين ما هو مادي وما هو نفسي، فهو موجود في المجتمع من الناحية المادية، ولكنه منفصل عنه من الناحية النفسية، مما يجعله يشعر بالانفصال عن الآخرين والإحساس بعدم الانتماء واللامبالاة بطريقة يشعر فيها بأنه وحيد منفصل عن نفسه ومجتمعه.

غربة الذات (Self – estrangement)

هي حالة يدركها الفرد عن ذاته كمغترِّب، أي أنه أضحى نافراً أو مغترباً عن ذاته، وأصبحت الذات أداة مغتربة، لا تعرف ماذا تريد، فيفتقد القدرة على التواصل مع ذاته ومع الآخرين. ويُعبّر الفرد عن ذلك بعدم الانتماء واللامبالاة

وافتقاد الاكتراث بمجريات الأحداث الاجتماعية، والعزوف عن الأنشطة التي عادة ما تثير اهتمام الآخرين وتفاعلهم، وفقدان الدافع لتحقيق النجاح في الحياة إزاء محدودية الطموحات الشخصية، ورفض القيم السائدة، لاسيما الثقافية منها، والشعور بعدم الانتساب لمجتمعه والرضى عنه.

الرفض (Rejection)

هو اتجاه سلبيّ ومعادٍ نحو الآخرين، أو نبذ بعض السلوك، ويتضمن الرفض الاجتماعي، والتمرد على المجتمع، وعدم التقبُل الاجتماعي وحتى رفض الذات.

التمرد (Rebelliousness)

يظهر التمرد في شكل سلوك رافض يتسم بالعداء والازدراء والكراهية والشعور بالاستياء، والإحباط واليأس من كل ما تعارف عليه المجتمع من قيم ومعايير، عبر اللجوء للانسحاب من المجتمع والالتصاق بالذات والاحتماء فيها، فهو شعور الفرد بالبعد عن الواقع ومحاولة الخروج عن المألوف وعدم الانصياع للعادات والتقاليد السائدة، والإحساس بالإحباط والسخط والرفض والعداء لكل ما يحيط به من قيم ومعايير،

فقد يكون التمرد على النفس أو على المجتمع بما يحتويه من أنظمة ومؤسسات، أو حيال قضايا معينة، مصحوباً برغبة جامحة في هدم أو تدمير أو إزالة كل ما هو قائم، مما يدفعه إلى رفض القيم الثقافية والوسائل المجتمعية المنتظمة والتعلق بأهداف ووسائل أخرى بديلة، والانضواء في جماعات فرعية لها ثقافتها الخاصة بها، وممارسة العنف والتطرف، في ظل وجود نزعة تدميرية تتجه إلى خارج الذات في شكل سلوك عدواني، وأخرى تتجه إلى داخل الذات في شكل عزلة ونكوص وعدوان موجه إلى الذات.

الهُويّة (Identity)

تعني "الهُويّة" نسق المعايير التي يُعرف بها الفرد ويُعرّف، وينسحب ذلك على هوية الجماعة أو المجتمع أو الثقافة، فهي حصيلة لمجموعة من أنساق العلاقات والدلالات التي يستقي منها الفرد خصائصه الأساسية ومعنى لقيمه، ويضع لنفسه في ضوئها نظاماً يشكل في إطاره هويته، بحيث تتوفر له من جراء ذلك إمكانية تحديد ذاته داخل الوسط الاجتماعي الثقافي الذي يعيش فيه، باعتباره نظاماً مرجعياً على المستوى السلوكي.

والهوية ليست كياناً ثابتاً ومطلقاً وإنما متغيرٌ لا يعطى دفعة واحدة إلى الأبد، فهي حقيقة تولد وتنمو وتتكون وتتغاير وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب، بوصفها عملية متعلمة من الواقع الثقافي والاجتماعي الذي يعيشه الفرد في مجتمعه، ومظهراً من مظاهر نمو الشخصية. ويوجد نوعان من الهوية بينهما درجة كبيرة من الارتباط هما: الهوية الشخصية (Personal Identity) والهوية الاجتماعية (Social Identity)، حيث تقوم الأولى على الخصال الفردية والوعي، بينما تقوم الثانية على الانتماء للجماعة.

وتتضمن الهوية الإنسانية، فردية كانت أو جماعية، عدة عناصر وهي؛ العناصر المادية والفيزيائية: وتشمل الحيازات، مثل الاسم والآلات والسكن والملابس، والقدرات الاقتصادية والعقلية، والتنظيمات المادية والسمات المورفولوجية، أي الشكل والبنية الخارجية. العناصر التاريخية: وتشمل الأصول التاريخية والأحداث والآثار التاريخية. العناصر الثقافية: وتتضمن النظام الثقافي، مثل العقائد والأديان والرموز الثقافية ونظام القيم وصور التعبير

الأدبي والفني. العناصر العقلية: مثل النظر إلى العالم والاتجاهات والمعايير الجمعية، والنظام المعرفي مثل السمات النفسية الخاصة واتجاهات نسق القيم. العناصر النفسية الاجتماعية: وتشمل الأسس الاجتماعية، مثل السن والجنس والمهنة والسلطة والدور الاجتماعي والانتماءات، والقدرات الخاصة بالمستقبل، مثل القدرة والامكانية والتكيف ونمط السلوك، وتعتبر هذه العناصر ضرورية لتكوين هوية الفرد أو الجماعة، فوجود هذه العناصر أو غيابها كلها أو بعضها شرط جوهري لوجود الفرد أو الجماعة.

وهناك عدة شروط ذات صلة عميقة بالهوية وضرورية لقيامها، ومنها الشعور بوحدة الشخصية وتكاملها، والشعور بالوحدة والاستمرارية الزمنية، والشعور بالمشاركة العاطفية، والشعور بالثقة والاستقلال، والمراقبة الذاتية والاعتراف الاجتماعي.

العولمة (Globalization)

انتشر استخدام مصطلح "العولمة" منذ أوائل التسعينيات في كتابات سياسية واقتصادية عديدة، بعد سقوط النظام

الشـيوعي في الاتحـاد السـوفيتي وأوروبـا الشـرقية، وثـورة الاتصالات وانفتاح العالم أمام الاقتصاد الحر دون قيود، وذلك قبل أن يكتسب المصطلح دلالات استراتيجية وثقافية وفكرية مهمة من خلال تطورات واقعية عديدة في العالم. ويُعرّف معجم وبستر العولمة بأنها "إكساب الشيء طابع العالمية، وخصوصـاً جعل نطاق الشيء أو تطبيقه عالمياً"، كما تعني الزيادة المتنامية في وتيـرة التداخل بين الموضـوعات والمجتمعات البشـرية في العـالم، حيث يتمثل جوهر عملية العولمة في سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع بين الدول على النطاق الكوني.

المواطنة (Citizenship)

تشير دائرة المعارف البريطانية إلى المواطنة بأنها "علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة"، وتؤكد أن المواطنة تدل ضمناً على "مرتبة من الحرية مع ما يصاحبها من مسؤوليات". وبالرغم من ترادف الجنسية، غالباً، للمواطنة، حيث تتضمن علاقة بين فرد ودولة، إلا أنها تعني امتيازات أخرى خاصة، منها الحماية في الخارج، إذ إن المواطنة "تسبغ

على المواطن حقوقاً سياسية، مثل حق الانتخاب وتولي المناصب العامة". فيما تذكر موسوعة الكتاب الدولي أن المواطنة هي "عضوية كاملة في دولة أو في بعض وحدات الحكم"، ولا تميز هذه الموسوعة بين المواطنة والجنسية أسوة بسابقتها، وتؤكد أن "المواطنين لديهم بعض الحقوق مثل حق التصويت وحق تولي المناصب العامة، وكذلك عليهم بعض الواجبات مثل واجب دفع الضرائب والدفاع عن بلدهم".

ويستدل على ذلك بأن كل من يحمل جنسية الدولة من البالغين الراشدين يتمتعون بحقوق المواطنة فيها. ومن أجل تجسيد المواطنة في الواقع، على القانون معاملة كل الذين يعتبرون بحكم الواقع أعضاء في المجتمع، على قدم المساواة بصرف النظر عن انتمائهم القومي أو طبقتهم أو جنسيتهم أو عرقهم أو ثقافتهم، إضافة إلى حماية وتعزيز كرامة واستقلال واحترام الأفراد، وتقديم الضمانات القانونية لمنع أي تعديات على الحقوق المدنية والسياسية، وعليه أيضاً ضمان الشروط الاجتماعية والاقتصادية لتحقيق الإنصاف، وتمكين الأفراد من المشاركة الفعالة في اتخاذ القرارات التي تؤثر في حياتهم، وفي

عمليات اتخاذ القرارات السياسية في المجتمعات التي ينتسبون إليها، وضمان الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تمكن المواطن من التعبير عن رأيه ومصالحه بحرية، وتحقيق المساواة بين الجميع دون تمييز.

ويتمثل الحدّ الأدنى لاعتبار دولة ما، مراعية لمبدأ المواطنة من عدمه، وفق آراء مختصة، بجانب منه، في عدّ جميع السكان الذين يتمتعون بجنسية الدولة أو الذين لا يحوزون عليها ولكنهم مقيمين على أرضها وليس لهم وطن غيرها، مواطنين متساويين في الحقوق والواجبات يتمتع كل فرد منهم بحقوق والتزامات مدنية وقانونية متساوية، كما تتوفر ضمانات وإمكانيات ممارسة كل مواطن لحق المشاركة السياسية الفعالة وتولي المناصب العامة، وضمان الحقوق الاجتماعية والاقتصادية، دون أن يلغي الحق الطبيعي المنصوص عليه في قرارات الشرعية الدولية بالعودة إلى الوطن، متى تسنى ذلك، باعتباره متطلب دولة المواطنة.

المـــراجع

أولاً: المراجع باللغة العربية

١) إبـراهيم عيـد (١٩٩٠) الاغـتراب النفسـي، القـاهرة: الرسالة الدولية للإعلان.

٢) إبـراهيم مـدكور وآخـرون (١٩٨٣) المعجـم الفلسـفي، القاهرة: الهيئة المصرية لشؤون المطابع الأميرية.

٣) إميل بوترو (١٩٧١) فلسفة كانط، ترجمة عثمـان أمنـي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

٤) أندريه كريسون (١٩٨٤) فولتير: حياتـه، آثـاره، فلسـفته، ترجمة صباح محي الدين، بيروت: منشورات عويدات.

٥) إيمانويل كانط (٢٠٠٥) ماهي الأنوار؟، ثلاثة نصـوص، ترجمة محمود بن جماعة، تونس: دار محمد علي للنشر والتوزيع.

٦) جان جاك روسو (٢٠١٢) العقد الاجتماعي، ترجمة عادل زعيتر، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

٧) جورج بوليتزر (١٩٨٧) مبادئ أولية في الفلسفة، ترجمة فهمية شرف الدين، بيروت: دار الفارابي.
٨) حسن حماد (١٩٩٥) الإنسان وحيداً: دراسة في مفهوم الاغتراب في الفكر الوجودي المعاصر، القاهرة: مكتبة الشباب.
٩) حليم بركات (٢٠٠٦) الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
١٠) حمادي أنوار (٢٠٢٠) الفلسفة وسؤال التطرف الديني والسياسي، بحث منشور على موقع مجلة "ذوات" الصادرة عن مؤسسة "مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث"، العدد ٦١، تاريخ ٣/ ٣/ ٢٠٢٠. www.mominoun.com
١١) دنيس كوش (٢٠٠٧) مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
١٢) روجيه بول دروا (٢٠١٤) فقه الفلسفة، ترجمة فاروق الحميد، دمشق: دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع.

١٣) سلمى مبروك (٢٠١٨) أصول العنف: مقاربة من أجل فهم ظاهرة العنف وميكانيزماتها، في "العنف: قضايا وإشكالات"، بحث منشور على موقع مجلة "ذوات" الصادرة عن مؤسسة "مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث"، تاريخ ٢٩/ ٣/ ٢٠١٨.
www.mominoun.com

١٤) سناء حامد زهران (٢٠٠٤) إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب، القاهرة: عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع.

١٥) السيد علي شتا (١٩٩٣) نظرية الاغتراب من منظور الاجتماع، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

١٦) طه عبد الرحمن (٢٠٠٦) الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

١٧) عبد السلام بنعبد العالي (٢٠١٤) أشياء سبق الحديث عنها، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

١٨) عبد السلام بنعبد العالي (٢٠١٠) امتداح اللافلسفة، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

١٩) عبد الكريم غلاب (١٩٩٨) أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

٢٠) عبد اللطيف خليفة (٢٠٠٣) دراسات في سيكولوجية الاغتراب، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

٢١) عبد المنعم الحفني (٢٠٠٠) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة: مكتبة مدبولي.

٢٢) علي أسعد وطفة (٢٠٢٠) في مفهوم الأخلاق: قراءة فلسفية معاصرة، بحث منشور على موقع مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية بتاريخ ٢١/ ١١/ ٢٠٢٠.
https://tanwair.com/archives/6609

٢٣) علي أسعد وطفة (١٩٩٨) المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، الكويت: مجلة عالم الفكر، مجلد ٢٧، العدد ٢.

٢٤) علي الكواري (٢٠٠١) مفهوم المواطنة في الدولة الديمقراطية، بيروت: مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٦٤.

٢٥) عيسى محمد بوراس (٢٠٠٩) القاعدة القانونية والقاعدة الأخلاقية، بحث منشور على موقع البوابة المعرفية، بتاريخ ٢٨/ ١/ ٢٠٠٩. www.veecos.net

٢٦) غمشي الزهرة (٢٠١٦) الهوية الافتراضية بين الذات الأصيلة والذات الزائفة: قراءة في الاغتراب الذاتي للمتلاعبين بالهوية عبر الفضاءات الافتراضية من منظور "اريك فروم"، الجزائر: مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.
٢٧) فؤاد زكريا، شاكر مصطفي (١٩٨٨) الثقافة العربية والاعتماد على الذات، الكويت: مؤسسة الكميل للتوزيع والإعلام والنشر.
٢٨) محمد أحمد بيومي (١٩٩٢) ظاهرة التطرف: الأسباب والعلاج، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
٢٩) محمد إبراهيم عيد (٢٠٠٠) الإرهاب وغيبة الفكر الفلسفي، في: ابن رشد اليوم "الإرهاب وتدريس الفلسفة"، القاهرة: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.
٣٠) محمود رجب (١٩٨٨) الاغتراب: سيرة مصطلح، القاهرة: دار المعارف.
٣١) وليم كلى رايت (٢٠٠٥) تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

٣٢) يســـرى السّــعيد (٢٠٢٠) دور الفلســـفة العقلانيـــة المعاصرة في مواجهة الإرهاب، بحث منشور على موقع مجلـة "ذوات" الصـادرة عـن مؤسسـة "مؤمنـون بـلا حـدود للدراسـات والأبحـاث"، العـدد ٦١، تـاريخ ٣/ ٣/ ٢٠٢٠. www.mominoun.com

ثانيـًا: المراجع باللغة الانجليزية

33) Edward Burnet Taylor, Primitive Culture: Researchers Into the Development of Mythology, Religion, Art, and Custom, 2 vols, (London: J Murrayk 1871).

34) Erich Fromm, (2001) The San Society, London: Routledge Publisher.

35) Gavin Rae, (2012) Hegel, Alienation. And the Phenomenological Development of Consciousness, International Journal of Philosophical Studies, Volume 20, Issue 1. Published online: 10 Feb 2012. https://www.tandfonline.com/doi/abs/10.1080/09672559.2011.631147

37) Georg Lukacs, (1971) History and Cass Consciousness: Studies in Marxist Dialectics, Translated by Rodney Livingstone.

38) Jurgen Habermas (1992), Legitimation Crisis, Translated by Thomas Mc Carthy, Polity Press, London.

39) Karl Marx (1964), Economic and Philosophic Manuscripts of 1844, Edited with an introd. By Dirk J. Struik; Translated by Martin Milligan (New York: International Publishers.

40) Milton Rokeach (1960), The open and Closed Mind, New York, Basic Books.

41) Seeman, M. (1959) On The Meaning of Alienation,American Sociological Review, vol. 24.

42- Seeman, M (1975) Alienation Studies, Annual Review of Sociology.

43- World Book International, The World Book Encyclopedia (London: World Book, Inc., vol 4.

الفهـرس

الفلسفة والمشكلات المعاصرة

(التطرف، الاغتراب الثقافي نموذجًا)



خمس سلاسل للنشر، متطورة وعصرية، تطلقها وزارة الثقافة الأردنية، تسد النقص في المكتبة المحلية والعربية، منشورات مهمة في حقول معرفية مختلفة، فجاءت سلسلة فكر ومعرفة التي تسعى إلى خلق الوعي والإدراك وتنمية التفكير وفهم الحقائق وسياقات التاريخ والحياة، وتفسير النتائج والتجربة الإنسانية، وخلق التأمل الفلسفي ضمن آليات المنطق والتحليل العلمي. وسلسلة الفلسفة للشباب بهدف تشجيع الأجيال الجديدة للإفادة من مناهج الفلسفة في فهم العالم المعاصر، وتوعية الرأي العام بأهمية الفلسفة، واستخدامها نقديا لمعالجة طروحات العولمة وعصر الحداثة. وسلسلة الكتاب الأول التي تُعنى بنشر الكتاب الأول للمؤلفين؛ كباكورة لأعمالهم المستقبلية، مع مراعاة الإبداعية والشروط الكتابية الناضجة. وسلسلة سرد وشعر التي تُعنى بالكتابات الشعرية والسردية المهمة، المغايرة والمختلفة في الطرح والشكل، ذات الجودة والمكانة في تحقيق إضافة نوعية للمكتبة المحلية والعربية. وسلسلة شغف، تختص بالمخطوطات الموجهة للطفل، شعراً ونثراً، تراعي حاجات الطفل الفكرية والنفسية والوجدانية، وتحقق شروطها الفنية والجمالية والإبداعية.




9 789957 947071

هاتف: 5696218 962 + فاكس: 5691640 962 + ص.ب: 6140 عمّان - الأردن
E-mail:info@culture.gov.jo website:www.culture.gov.jo

